محاضرات
في سيرة الخلفاء الراشدين
رضي الله تعالى عنهم

الدكتور
أبو اليسر رشيد كُهُوسْ

الطبعة الأولى

1434 هـ/ 2013 م

جمهورية مصر العربية – القاهرة
زهراء مدينة نصر – المرحلة الثانية.
تليفون وفاكس: 24106748 – م: 01000135406
www.dar-elhekma.com
info@dar-elhekma.com

رقم الإيداع	2013/7765
الترقيم الدولي	978-977-728-008-2

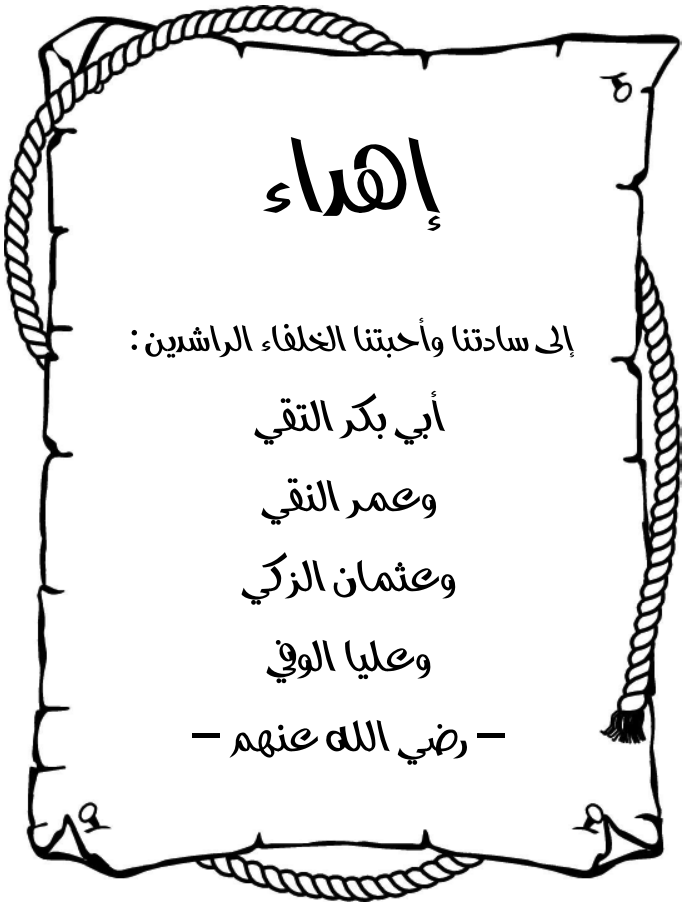

إهداء

إلى سادتنا وأحبتنا الخلفاء الراشدين :

أبي بكر التقي

وعمر النقي

وعثمان الزكي

وعليا الوفي

– رضي الله عنهم –

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي فضل سيدنا وحبيبنا محمدًا على العالمين، وأرسله إلى كافة الخلق أجمعين، خلق الخلق فأتقن صنعه، وأحسن وجود ما اخترعه، فغرس التصديق في الصِّديق وجمعه، وفرق بالفاروق بين الحق والباطل فدفعه، وألبس ذي النورين لباس الحياء وأودعه، وأعلا بعلي منار الإسلام ورفعه، ونور قلب من اتبع آثارهم ونفعه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما أبدعه، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا ومولانا محمدا عبده ورسوله بحر أنواره الملتمعة، ومعدن أسراره الظاهرة المستودعة، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وأزواجه ومن آمن به واتبعه.

أما بعد؛

فيمتد عصر الخلفاء الراشدين من عام 11 هـ إلى عام 41 هـ ، هذه الفترة التاريخية بدأت بتولي أبي بكر الصديق ﷺ الخلافة في شهر ربيع الأول عام 11 هـ، وانتهت بصلح الحسن بن علي وتخليه عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين عام 41 هـ. مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «الْخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ»[1].

وفي عهد الخلافة الراشدة اتسعت مساحة الدولة الإسلامية بعد أن كانت قاصرة على بلاد الجزيرة العربية عند وفاة مولانا رسول الله ﷺ لتشمل بلاد الجزيرة العربية والشام والجزيرة الفراتية ومصر والغرب الإسلامي والعراق وفارس وأفغانستان، وبلاد ما وراء النهر، وجزءا من بلاد الهند.

(1) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، ح2226، الحديث عن سفينة ﷺ. مسند أحمد بن حنبل، 5/ 221، ح21978. قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن. سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ح4646، قال الألباني: حديث حسن صحيح.

وتميزت تلك الفترة بأنها كانت امتدادا لعصر النبوة من حيث السير على منهاج رسول الله ﷺ، ولذلك قال عنها النبي ﷺ فيما رواه عنه العرباض بن سارية ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[1].

وانطلاقا مما سبق فإن مادة «سيرة الخلفاء الراشدين» تتحدث عن جيل كبار الصحابة ﷺ وزراء النبي الكريم ﷺ، كيف عاشوا؟ وكيف كانت حياتهم بالإسلام وللإسلام؟ كيف كان الواحد منهم أمة، وكيف يقف الخليفة في وجه العالم حين يقف العالَم في وجه الإسلام. إنه الجيل الذي حطّم أكبر إمبراطوريتين في عصره (الرومانية والفارسية)، إنه الجيل الذي عاش لله، وبذل النفس والروح والجسد في سبيل نصرة رسول الله ﷺ.

إنه الجيل الذي نقل إلينا سنة سيد الوجود ﷺ بكل تفصيلاتها، إنه الجيل الذي كرس حياته ليعرف كل كلمة وهمسة وإشارة وتقرير من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. إنه الأنموذج الخالد.

هؤلاء الأربعة هؤلاء الجبال سيكونون موضع الدرس في هذه المادة المخصصة لطلبة الفصل الرابع بكلية أصول الدين بتطوان؛ نبدأ من التعريف بهم، من هم؟ وكيف نشأوا؟ وكيف أسلموا؟ وكيف حافظوا على إسلامهم؟ وكيف أدوا الأمانة إلى أهلها؟ وكيف ساسوا رعيتهم؟ وكيف سعوا لنيل رضى ربهم؟ وكيف تخلصوا من الدنيا وأدرانها ومغرياتها وشهواتها؟ وكيف فتحوا البلاد ومغاليق القلوب، وكيف نشروا هذا الإسلام العظيم في ربوع الأرض فأناروا به البلاد وأصلحوها ونقلوها من الظلمات إلى النور بإذن ربهم.

لقد اختار الله عز وجل هؤلاء الأربعة لخلافة نبيه ﷺ، فكانوا أعظم الأصحاب وأكثرهم إخلاصاً وتفانياً في حب نبيهم وحبيبهم ﷺ. كانوا يفدونه بأنفسهم وأهاليهم وأموالهم. كان الواحد لا يرضيه أن يصاب رسول الله ﷺ بشوكة أو أقل. لقد ضربوا لنا أروع الأمثلة في الحب والإخلاص.

إننا لو أخذنا نتحدث عن مواقفهم وعظمتهم لما وسعنا المقام ولكنّا احتجنا إلى أكثر من مادة وأكثر من فصل دراسي لنعرف هذا الجيل العظيم.

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، 4/ 126، ح17184. قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح ورجاله ثقات.

إن تاريخ الخلفاء الراشدين هو الكنز الذي حفظ مدخرات الأمة في: الفكر والثقافة والعلم والتربية والجهاد والسياسة، وحركات الفتوح، والتعامل مع الأمم والشعوب، فتجد الأجيال المسلمة في هذا التاريخ المجيد والماضي التليد ما يعينها على مواصلة مسيرتها في الحياة على منهاج صحيح، وهدى رشيد، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ووظيفتها في الحياة.

إن تاريخ الخلافة الراشدة أصبح غرضا ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا ثغرة في الإسلام وتاريخه الزاهر حتى يتسنى لهم عزل الأجيال عن الإسلام وعقيدته وشريعته وقيمه وأخلاقه ومبادئه، ولذلك يضحون بكل جهودهم لنفث سمومهم في المجتمع المسلم.

لقد حاول المستشرقون -ومن قبلهم الروافض- أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام ﷺ، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ، ولذلك يجب الحذر من كل رافضي كاذب، ومستشرق حاقد، ولائكي جاهل، ومستغرب تابع، ولابد من تقديم تاريخ الخلافة الراشدة في صورته الناصعة البياض، النقية الصافية المليئة بالدروس والعبر والقيم الخالدة والمواقف الباسلة.

وانطلاقا مما سبق نحاول في هذا المقرر أن نلقي نظرات على هذا العصر لنستخلص منها بعض الدروس والعبر لنستضيء بنورها الوهاج في هذا العصر الذي تكالبت فيه كل الأمم على أمتنا المسلمة.

وأسأل الله تعالى السداد والرشاد والتوفيق والرضا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم آمين.

وصل اللهم وسلم على سيدنا وحبيبنا وإمامنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه أبو اليسر رشيد كهوس ظهر يوم الخميس 10 ربيع الآخر 1434هـ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المدخل العام

ماهية الخلافة

أولا: تعريف الخلافة لغة واصطلاحا:

1- **الخلافة لغة:** «خَلَفَهُ يَخْلُفُهُ صَارَ خَلْفَهُ... وَالخَلِيفةُ الَّذِي يُسْتَخْلَفُ مِمَّنْ قَبْلَهُ، وَالْخِلافَةُ الإِمَارَةُ»[1]. وفي تاج العروس: «الخَلَفُ، بالتَّحْرِيك، وَالسُّكُون: كُلُّ مَنْ يَجِيءُ بَعْدَ مَنْ مَضَى، إِلاَّ أَنَّهُ بِالتَّحْرِيكِ فِي الْخَيرِ، وَبِالتَّسْكِينِ فِي الشَّرِّ»[2].

ولقد استعمل القرآن الكريم لفظ «الخليفة» بصيغة الجمع «خلفاء» و«خلائف» للإشارة إلى بعض الجماعات، لكن لم تكن لها أدنى علاقة بالمؤسسات السياسية كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]، واستخدمها في محلَّيْن مفردة، مرَّة إشارة إلى آدم عليه السلام كما في قوله عز اسمه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]، ومرَّة إلى داود عليه السلام في قوله جلت عظمته وتقدست كلماته: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴿٢٦﴾ ﴾ [ص]، ونجد في الكثير من التفاسير أن معنى هاتين الآيتين تدور حول المعاني اللغوية، من الاستخلاف والنيابة، ومن ثم وجدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه أول من تلَّقب بالخليفة؛ إذ خلف رسول الله ﷺ في رئاسة الأمة[3].

2-**الخلافة اصطلاحاً:** جاء في مقدمة مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون-رحمه الله-: «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظرِ الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا به»[4].

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، مادة خلف 9/ 82.

(2) تاج العروس، الزبيدي، باب الفاء فصل الخاء مع اللام 23/ 247.

(3) البداية والنهاية، لابن كثير: 6/ 333.

(4) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا-بيروت، ط2/ 1420هـ-2000م، ص178.

وقال الإمام الماوردي -رحمه الله- في تعريفه للخلافة «أنها موضوعة لخلافة النبوة وحراسة الدين وسياسة الدنيا»[1].

وظيفة واضحة لا غبار عليها، مراعاة أحكام الدين، والوقوف عند أوامره ونواهيه والعمل بما جاء في الكتاب والسنة، وحماية الدين من الداخل والخارج.

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي-رحمه الله-: «ومعنى الخليفة في اللغة: هو الذي يُستخلف؛ لا الذي يخلفه دون أن يُستخلف هو لا يجوز غير هذا البتة في اللغة، بلا خلاف؛ تقول استخلف فلان فلانا يستخلفه ومستخلفه، فإن قام دون أن يستخلفه هو، لم يُقَلْ إلا خَلَفَ فلان فلانا فهو خالف»[2].

ويطلق على الخلافة أحيانا اسم «الإمامة» و«الإمارة»، وقد أجمعت الأمة على وجوب الخلافة وتعيين الخليفة ليرعى شئون الأمة، ويقيم الحدود ويطبق الشريعة الإسلامية في كافة مجالات الحياة، ويعمل على نشر دعوة الإسلام وحمايتها، ورفع المظالم وتوفير الضروريات والحاجيات لكل فرد من أفراد الأمة... وهذا ما فعله المسلمون بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ، فقد اتفقوا على بيعة أبي بكر الصديق ﷺ في سقيفة بني ساعدة خليفة لرسول الله ﷺ.

ولله در القائل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة[3] لهم ولا سـراة إذا جهـالهم سادوا

وتنعقد الخلافة بأمرين:

أولهما: النص، أي وجود نص من الكتاب أو السنة أو الإمام المنصوص عليه من لدن الله ورسوله على تعيين شخص بأنه الخليفة أو الإمام.

---

(1) كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، تحقيق: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصرية صيدا-بيروت، ط1/ 1421هـ2000-م، ص13.

(2) الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة-بيروت، ط2/ 1395هـ1975-م، 4/ 107.

(3) سراة: شريف.

وثانيهما: المبايعة والاختيار: إن أول مبايعة واختيار وقع بعد وفاة النبي ﷺ كان على اختيار أبي بكر الصديق ﷺ ومبايعته.

ثانيا: دعائم الخلافة:

1 – **مبدأ الشورى**: تعتبر الشورى إحدى الركائز الرئيسة التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام، تستمد شرعيتها من القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران]. وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه ﷺ في الكثير من الأمور؛ في غزوة بدر وفي أحد وفي الأحزاب... فلا يقطع أمرا من الأمور إلا بمشورة أصحابه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»[1]. وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما خاب من استخار ، وما ندم من استشار ، ولا عال من اقتصد**» [2].

ويقول عز من قائل: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩)﴾ [الشورى]. جاءت الشورى في سياق أبرز الصفات التي تتصف بها أمة سيدنا محمد ﷺ، أولها الإيمان وآخرها الانتصار على البغي: وهي كالآتي: (الإيمان بكل أركانه، والتوكل على الله تعالى، واجتناب الكبائر من الإثم والفواحش، والعفو عند المقدرة، والاستجابة لله تعالى، وإقام الصلاة، ثم المشورة بين المؤمنين، ثم البذل في سبيل الله تعالى، ثمر كل هذا الجهاد في سبيل الله تعالى للانتصار على البغي والظلم والعدوان)، ولا يمكن بتاتا عزل الشورى عن سياقها الذي جاءت فيه وإلا أصبحت دَمَقْرَطَة أو ديكتاتورية أو تجربة بلا نتيجة.

أما الإجماع على الشورى، فقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على اختيار أبي بكر الصديق ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ بعد المشاورة بينهم وموافقة الجميع على هذه المشورة والاختيار.

(1) سنن الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في المشورة، ح1714.
(2) المعجم الصغير للطبراني، باب الميم من اسمه محمد، ح980.

أما مجال الشورى فتكون في الأمور الدنيوية والدينية التي لم يأت بشأنها وحي من الله تعالى سواء من القرآن الكريم أم من السنة المحمدية الشريفة.

ومن الأمور الأساسة التي تجب فيها الشورى تنصيب الخليفة، قال الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ: «**لا خلافة إلا عن مشورة**»[1].

2 – **المبايعة**: قال ابن منظور: «والبَيْعةُ الصَّفْقةُ على إيجاب البيْع وعلى المُبايعةِ، والطاعةِ. والبَيْعةُ: المُبايعةُ والطاعةُ، وقد تبايَعُوا على الأَمر كقولك: أَصفقوا عليه، وبايَعه عليه مُبايَعة عاهَده وبايَعْتُه من البيْع والبَيْعةِ جميعاً»[2]. وقال الراغب:»بايع السلطان: إذا تضمَّن الطاعة له بما رضخ له، ويقال لذلك بيعة ومبايعة»[3].

هذا عن المعنى اللغوي للبيعة، أما في الاصطلاح فتعني: إظهار الرضا بالإمام والطاعة له بشرط التزامه بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أي بشروط المبايعة.

وتسقط عنه المسئولية إذا أخل المبايَع بشروط المبايعة.

أما من يختار الخليفة فيختاره أهل الحل والعقد (وهم أهل الشورى) الذين اختارتهم الأمة للنيابة عنها في البحث والتنقيب عمن يصلح لهذه المهمة العظيمة ممن تتوفر فيهم شروطها من أهل الإسلام.

ويشترط في أهل الحل والعقد: الإسلام، والأهلية الكاملة (العقل، والبلوغ، والحرية، والذكورة)، والعدالة الجامعة لشروطها، والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة، الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف، ويشترط في هيئة أهل الحل والعقد تعيين الأمة لهم، فالشخص الذي لم يتم تعيينه من قبل الأمة في هذه الهيئة لا يعتبر من أهل الحل والعقد.

---

(1) كنز العمال في سنن الأفعال والأقوال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، ط1/ 1971م، 5/ 648، ح14136.

(2) لسان العرب، 8/ 23، مادة: بيع.

(3) مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم-دمشق، ط3/ 1423هـ-2002م، ص155.

هذا وتصح البيعة بتحقق الرضا التام من طرفي العقد، في أهل الحل والعقد والأمة من جهة، وفي المرشح لمنصب الإمامة من جهة أخرى. أضف إليه أن تصدر البيعة من هيئة أهل الحل والعقد المعينة من قبل الأمة والتي حازت جميع الشروط المطلوبة. إضافة إلى أن تتحقق في المرشح جميع الشروط المطلوبة في الإمام.

ثالثا: الشروط المعتبرة في أهل الخلافة:

لقد حدد علماء الأمة الشروط التي يجب توفرها في الخليفة فيما يأتي:

1-**الإسلام**: لا يتولى أمر المسلمين إلا من كان مسلما، يؤمن بما يؤمنون به، ويعتقد بما يعتقدون، بما جاء مفصلا في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله الأمين ﷺ، وأجمع عليه مجتهدو الأمة، وأصل هذا المبدأ قوله جل وعلا: ﴿...وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء]، فالله تعالى ينفي إباحة ولاية الكافر على المسلم على التأبيد، ولن تباح في وقت من الأوقات، وسيظل تحريمها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقوله تقدست كلماته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء]. والشاهد عندنا قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾؛ فالطاعة مقيدة بشرط أن يكون الولاة من المسلمين للضمير العائد إلى المخاطبين ﴿مِنكُمۡۖ﴾ وهم المؤمنون، أما غير المسلم فلا سمع له ولا طاعة.

2-**البلوغ والعقل (التكليف)**: أي أن يكون الإمام مكلفا، عاقلا بالغا، فلا تنعقد الإمامة لمجنون أو معتوه أو صبي، فالصبي والمجنون لا ولاية لهما على أنفسهما فكيف تكون لهما الولاية على غيرهما!

3-**الذكورة**: قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ...٣٤﴾ [النساء]. وبناء عليه فلا تجوز إمامة المرأة، فنساء الإسلام حدد لهن الإسلام وظيفتهن؛ فهن مربيات الأجيال وصانعات المستقبل، والجنة تحت أقدامهن إن أنشأنا أمة بكاملها بتربيتهن وحسن رعايتهن لفلذات أكبادهن...

فلا يمكن للعنصر الفاتن وما يتعرض لها من حالات في تكوينها الخِلقي والنفسي أن تقوم بمثل هذه المهمة العظيمة (الخلافة أو الإمامة)، وهذا ما أكده الحديث النبوي الشريف في عرضة أمر المسلمين للخسران إن وليته المرأة. لا تنقيصا من قدرها، بل مراعاة لخصوصيتها وطبيعتها الخِلقية. عن أبي بكرة ﷺ : قال النبي ﷺ: "**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»[1].

4- **الحرية**: فلابد لمن يكون إماما للمسلمين أن يكون حرا يملك حرية التصرف، على عكس العبد الذي لا يملك حرية التصرف بنفسه فمن باب أولى التصرف في غيره.

5- **العدالة** على شروطها الجامعة: فمن لم يكن عدلا، لا يمكن استئمانه على مصالح الأمة، فلا شك أنه سيضيع حقوق الناس في سبيل تحقيق مصالحه ومشتهياته.

قال العلامة الماوردي: «الْعَدَالَةُ وَهِيَ مُعْتَبَرَةٌ فِي كُلِّ وِلَايَةٍ وَالْعَدَالَةُ: أَنْ يَكُونَ صَادِقَ اللَّهْجَةِ ظَاهِرَ الْأَمَانَةِ، عَفِيفًا عَنْ الْمَحَارِمِ مُتَوَقِّيًا الْمَآثِمَ، بَعِيدًا مِنْ الرَّيْبِ، مَأْمُونًا فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، مُسْتَعْمِلًا لِمُرُوءَةِ مِثْلِهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ فَهِيَ الْعَدَالَةُ الَّتِي تَجُوزُ بِهَا شَهَادَتُهُ وَتَصِحُّ مَعَهَا وِلَايَتُهُ، وَإِنْ انْخَرَمَ مِنْهَا وَصْفٌ مُنِعَ مِنْ الشَّهَادَةِ وَالْوِلَايَةِ فَلَمْ يُسْمَعْ لَهُ قَوْلٌ وَلَمْ يَنْفُذْ لَهُ حُكْمٌ»[2].

6- **العلم المؤدِّي إلى الاجتهاد في النَّوازل والأحكام**: ويشمل العلم بالأحكام الشرعية (العلم بكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، والعلم بتأويل السلف[3] فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع الإجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف، علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها حتى يجد طريقا إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل)[4].

7-**سلامة الحواسِّ** من السَّمع والبصر واللِّسان؛ ليصحَّ معها مباشرة ما يدرك بها، مع **سلامة الأعضاء** من نقصٍ يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ح6686.
(2) الأحكام السلطانية، ص82.
(3) السلف هنا هم الصحابة ﷺ والتابعون لهم من أهل القرون الخيرية الثلاثة الأولى.
(4) الأحكام السلطانية، ص82.

8- الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح[1]؛ أي أن يكون على قدر كبير من حصافة الرأي وحسن التدبير في أمور السياسة والإدارة والحرب، إضافة إلى قوة القريحة، ونفاذ البصيرة، ورجاحة العقل.

9- **الشجاعة** والتحلي برباطة الجأش وقوة القلب، والنجدة المؤدِّية إلى حماية بيضة الإسلام وجهاد العدوّ... فلا إمامة لمن عرف بالجبن عند الشدائد، وإقامة الحدود.

10-**النسب القريشي**: جاء في لسان العرب: «القَرْشُ الجمع والكسبُ، والضم من ههنا وههنا يضم بعضه إلى بعض، وقَرَشَ يَقْرِشُ ويَقْرُشُ قَرْشاً وبه سميت قُرَيش وتَقَرَّش القومُ تجمَّعوا»[2].

فانظلاقا من هذا التعريف اللغوي لقريش، فيكون المقصود بقريش التي يكون منها الخلفاء ليست القبيلة، بل هي أمة الداعين إلى الله تعالى الجامعين القارشين، ولا يكون خليفة إلا من جمع الأمة ووحد صفها بحكمته وإيمانه العميق...

وعلاوة على ذلك فقد درس علماء الأمة الأحاديث الواردة في النسب القريشي عبر العصور؛ فطعنوا في بعضها وضعفوا بعضها، لكن إن كان صاحب النسب القريشي كأبي بكر الصِّديق ﷺ في محبته وسياسته لرعيته وأبي الحسن علي ﷺ في شجاعته وحِلمه وعلمه فلا أحق بها منهما.

لكن النسب القبلي لا مزية له من نفسه، بل هو العصبية بعينها والتنكر للإسلام الذي ساوى بين الناس كافة لا فرق لأحد على أحد إلا بالتقوى، كيف نجعل النسب القريشي من الشروط الضرورية وسيدنا رسول الله ﷺ أمرنا أمرا صريحا واضحا لا غبار عليه ولا مطعون فيه أن نسمع ونطيع ولو ولي علينا عبد حبشي كأن رأسه زبيبة! عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[3].

(1) الأحكام السلطانية، ص14.
(2) لسان العرب، لابن منظور، 6/ 334، مادة: قرش.
(3) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى، ح639.

ولا نقصد الذين استغلوا هذا الحديث في زمان الفتنة لتبرير المنكر والظلم، وإنما يعنينا أن أمر الأمة وراعيها أن يكون بيد أفضل الناس وأكرم الناس: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

فيكون المقصود من قريش أي من الجامعين الذين جمعوا ما لا يقدر على جمعه إلا أهل الكمال، ومن القارشين.

ومن الأحاديث التي يستدل بها علماء الفقه السياسي، عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ، وَالْحُكْمُ فِي الْأَنْصَارِ، وَالدَّعْوَةُ فِي الْحَبَشَةِ، وَالْهِجْرَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ بَعْدُ**»(1). فإن احتكر القريشيون الخلافة باستنادهم إلى هذا الحديث، فسيحتكر الأنصار الحكمة ويزعمون أنها موقوفة عليهم، ويحتكر كل حبشي الأذان، ولا هجرة بعد الفتح والهجرة أن نهاجر ما حرم الله علينا.

11- **الرحمة بالرعية**: قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ...﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]، هكذا كان سيدنا رسول الله ﷺ، رحيما بأمته رءوفا بها، وعلى منهاجه سار خلفاؤه من بعده.

12- **الأمانة والقوة**: قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف الصديق عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، فحفظ الخزائن يتطلب الأمين الحافظ والأمين العليم بالحساب. وفي قوله جل وعلا لما بعث طالوت ملكا لبني إسرائيل: ﴿... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ ...﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة]، تميز طالوت بكفاية العقل وكفاية القوة البدنية، أي الأمانة والقوة.

وخلاصة القول:

إن كل الشروط السابقة شروط فقهية مؤسسة على القرآن والسنة، ويجمعها الكفايات الثلاث: الكفاية الروحية - الكفاية الفكرية - الكفاية العملية، باستثناء شرطا الذكورية والنسب القريشي.

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، 4/ 185. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

رابعا: ما يلزم الخليفة من الأمور:

1- إقامة الدين وحفظه على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن ظهر مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبيّن له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل. أي يقيم الفريضة ويحيي السنة ويميت البدعة.

2- حماية بيضة الإسلام وجماعة المسلمين والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

3- إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

4- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرّة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما.

5- قتال من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

6- جباية الفيء (الغنيمة والخراج) والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف.

7- تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير تبذير ولا شح وبخل، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

8- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوّض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

9- أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح[1]،

(1) الأحكام السلطانية، ص25-26.

وقد قال الله عز اسمه: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

10-العدل: أقصد بالعدل الاستقامة في حقوق الله وفي حقوق عباده. يقول ربنا تبارك وتعالى يخاطبنا معشر الأمة المحمدية: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ... ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء]، ويقول عز من قائل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]. والقسط المذكور في الآية هو : العدل، والمقصود بالعدل هو عدل الحكم وعدل القسمة، فالأول هو الفصل فيما يقع بين الأفراد من تشاجر وخصومات، والثاني هو المساواة بين أفراد المجتمع، وذلك بقطع دابر المترفين، وتقليم أظافر المسرفين والمبذرين، وتسوية الفساد الطبقي، والتكافل الاجتماعي من كفالة اليتيم والمسكين والعاجزين، بالإضافة إلى توفير الشغل للقادرين.

فالعدل بين الناس في الحكم، والعدل في الأرزاق حين تُنتَجُ وحين تُقسم، والعدلُ بين الناس جميعا أبيضِهم وأسوَدِهِمْ مطالب أساسية بل هو من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها التي يقصد إليها الشرع: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

المحور الأول

أثر وفاة رسول الله ﷺ على أصحابه ﷺ

لما قفل سيدنا رسول الله ﷺ راجعا من حجة الوداع والبلاغ والتمام والكمال أقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرا وضرب على الناس بعثا إلى الشام وهو البعث الذي أمر إليه أسامة بن زيد ﷺ وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون وكان آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ، فبينا الناس على ذلك ابتدئ صلوات الله عليه بشكواه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد به من رحمته وكرامته في ليال بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول فكان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ، وذلك لما خرج إلى بقيع الغرقد -(مقبرة أهل المدينة)- من جوف الليل فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله فبدأ به وجعه الذي قبضه الله فيه.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (دخل عليّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه فقلت: وارأساه! فقال: «وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك ودفنتك»، قالت فقلت: غيري كأني بك في ذلك اليوم عروسا ببعض نسائك. قال: «وأنا وارأساه ادعوا إلي أباك وأخاك حتى اكتب لأبي بكر كتابا فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن أنا أولى ويأبى الله عز وجل والمؤمنون إلا أبا بكر»)[1].

ودار رسول الله ﷺ على نسائه واشتد به الوجع وهو في بيت أم المؤمنين ميمونة -رضي الله عنها- فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت أم المؤمنين عائشة الصديقية -رضي الله عنها- فأذنَّ له، فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر- علي بن أبي طالب - عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة

(1) مسند أحمد بن حنبل، 6/ 144. قال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط الشيخين. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف، ح6791. وفي هذا الحديث الصحيح الإسناد إشارة واضحة إلى خلافة أبي بكر الصديق ﷺ وأنه أحق بها من غيره.

-رضي الله عنها-، فقال: «هريقوا[1] علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن[2] لعلي أعهد إلى الناس»، وأجلس في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ -رضي الله عنها- ثم طفقنا نصب عليه تلك حتى طفق يشير إلينا (أن قد فعلتن). ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم[3].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ، وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا! فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمُنَا به. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِه وَصُحْبَتِه أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»[4].

وروت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه لما ثقل الوجع بالنبي ﷺ قال «أصلى الناس»؟. قلنا: لا هم ينتظرونك قال: «ضعوا لي ماء في المخضب». قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلى الناس»؟. قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله قال: «ضعوا لي ماء في المخضب». قالت: فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال: «أصلى الناس». قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المخضب». فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس». قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله. والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس فقال: أبو بكر وكان رجلا رقيقا يا عمر صل

(1) هريقوا: صبوا.

(2) أوكيتهن: جمع وكاء وهو ما يشد به فم القربة والغرض من أنها لم تحلل أوكيتهن المبالغة في كونها طاهرة.

(3) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح والخشب والحجارة، ح195.

(4) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ، ح3691.

بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام. ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر قال: «أجلساني إلى جنبه». فأجلساه إلى جنب أبي بكر قال: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد[1].

وعن أنس بن مالك قال: «آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ يوم الاثنين، كشف الستارة والناس خلف أبي بكر، فنظرت إلى وجهه كأنه ورقة مصحف، فأراد الناس أن يتحركوا فأشار إليهم أن اثبتوا، وألقي السجف وتوفي في آخر ذلك اليوم ﷺ»[2].

قُبض سيدنا رسول الله ﷺ، وكانت وفاته صدمة لأصحابه ﷺ، لم يستطع الكثير منهم تحملها؛ فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يُطق القيام، ومنهم من أعتُقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية...

كان خبر انتقال حبيبنا رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فجيعة كبرى، اشتدت وطأتها على نفوس المسلمين وأصابتهم بالذهول، وطاشت عقولهم واختلفت أحوالهم وأفحموا واختلطوا، فمنهم من خبل ومنهم من صمت، ومنهم من أقعد إلى الأرض، حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ نفسه لم يصدق لأول وهلة ووقف يهدد الناقلين للخبر ويتوعدهم بقوله: والله ما مات رسول اللهﷺ ، ولا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي ناس من المنافقين وأرجلهم، وصار ﷺ يتوعد من قال إنه مات، بالقتل أو القطع.

ما مات رسول الله ﷺ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، ولا زال ﷺ يتوعد المنافقين حتى أزبد[3] شدقاه.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، ح655.

(2) مسند أحمد بن حنبل، 3/ 110، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) أزبد: وتَزَبَّدَ الإِنسان إِذا غضِب وظهر على صِماغَيْه زَبدَتان. لسان العرب، 3/ 192، مادة: زبد.

وأما ذو النورين عثمان ﷺ فأخرس، وأما علي المرتضى كرم الله وجهه فأقعد، وجاء أبو بكر الصديق ﷺ وعيناه تهملان، فقبل النبي فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله طبت حيا وميتا، وتكلم كلاما بليغا سكن به نفوس المسلمين وثبت جأشهم[1].

عن عروة قال: «وقام عمر بن الخطاب يخطب الناس، ويوعد من قال قد مات بالقتل والقطع ويقول: إن رسول الله ﷺ في غشيته لو قد قام، قطع وقتل، وعمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن أم مكتوم قائم في مؤخر المسجد يقرأ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ...وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] والناس في المسجد قد ملئوه، ويبكون ويموجون لا يسمعون، فخرج عباس بن عبد المطلب على الناس فقال: يا أيها الناس، هل عند أحد منكم من عهد من رسول الله ﷺ في وفاته؟ فليحدثنا. قالوا: لا، قال: هل عندك يا عمر من علم؟ قال: لا، قال العباس: أشهد أيها الناس أن أحدا لا يشهد على النبي ﷺ لعهد عهده إليه في وفاته، والله الذي لا إله إلا هو، لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت. قال: وأقبل أبو بكر من السُّنح على دابته حتى نزل بباب المسجد، ثم أقبل مكروبا حزينا فاستأذن في بيت ابنته عائشة، فأذنت له فدخل، ورسول الله ﷺ قد توفي على الفراش والنسوة حوله، فكشف عن رسول الله ﷺ، فحنا عليه يقبله ويبكي، ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيء، توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده، رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حيا، وما أطيبك ميتا، ثم غشاه بالثوب، ثم خرج سريعا إلى المسجد، يتوطأ رقاب الناس حتى آتى المنبر، وجلس عمر حتى رأى أبا بكر مقبلا إليه فقام أبو بكر إلى جانب المنبر ثم نادى الناس، فجلسوا وأنصتوا فتشهد أبو بكر، بما علمه من التشهد، وقال: إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلا الله عز وجل قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فقال عمر: هذه الآية في القرآن والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم، وقال: قال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر] ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ...كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ

(1) السيرة الحلبية، 3/ 500.

وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى عمر محمدا ﷺ وأبقاه، حتى أقام دين الله، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك، وقد تركتكم على الطريقة. فلن يهلك هالك إلا من بعد البينة والشفاء، فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمدا وينزله إلها، فقد هلك إلهه، واتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله عز وجل بين أظهرنا، وهو النور والشفاء وبه هدى الله محمدا ﷺ وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة، ما وضعناها بعد ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبقين أحد إلا على نفسه، ثم انصرف معه المهاجرون إلى رسول الله ﷺ.

وعن عمر ﷺ أنه قال: «كنت أتأول هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]، فوالله إن كنت لأظن أنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، وأنه للذي حملني على أن قلت ما قلت»[1].

فخفف أبو بكر الصديق ﷺ بكلمته على الناس هول الفاجعة، وفاءوا إلى رشدهم بفيئه، وأمسوا يدربون أنفسهم على تحمل تلك المصيبة العظيمة، وعلى الصبر على فراقه، وعلى البحث في شئونهم العامة والخاصة.

وأما بضعة رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها فتقول: «وا أبتاه أجاب داع دعاه، يا أبتاه الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[2].

(1) دلائل النبوة، البيهقي، جماع أبواب مرض رسول الله ﷺ ووفاته، 7/ 217.

(2) السيرة الحلبية، أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط3/ 2008م، 3/ 499. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، ج2 ص336 وما بعدها.

عَنْ أَنَس ﷺ وَذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «شَهِدْتُهُ ﷺ يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْماً قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ وَلاَ أَضْوَأَ مِنْ يَوْم دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ رَسُولُ ﷺ، وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَوْتِهِ، فَمَا رَأَيْتُ يَوْماً كَانَ أَقْبَحَ وَلاَ أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»[1].

وبعد وفاة النبي ﷺ بايع المسلمون أبا بكر الصديق ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلا إلى تفريق كلمتهم، وتشتيت شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، ولا يدفن رسول الله ﷺ حتى يكون شملهم منتظماً، وعليهم أمير يتولى أمره.

(1) سنن الدارمي، باب في وفاة النبي ﷺ، ح88.

المحور الثاني

خلافة أبي بكر الصديق ﷺ

أولا: نبذة موجزة عن حياته:

1- ولادته ونسبه:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي. يلتقي مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب. أبو بكر الصديق بن أبي قحافة. واسم أبي قحافة عثمان. وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وهي ابنة عم أبي قحافة.

ولقب عتيقا لعتقه من النار وقيل لحسن وجهه. وقيل سمي عتيقا لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به. وأجمعت الأمة على تسميته صديقا. وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ ولازم الصدق فلم تقع منه هنات ولا كذبة في حال من الأحوال.

ولد أبو بكر عام 573م بعد الفيل بثلاث سنين تقريبا وكان ﷺ صديقا لرسول الله ﷺ قبل البعثة، وهو أصغر منه سنا بثلاث سنوات، وكان يكثر غشيانه في منزله ومحادثته. وقيل كني بأبي بكر لابتكاره الخصال الحميدة.

وعرف قبل الإسلام بصفات نبيلة: لم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرا قط، ولما سئل عن ذلك، قال: «أصون عرضي وأحفظ مروءتي»، كان سيدا من سادات قريش وثريا من كبار موسريهم وأعلمهم بالأنساب، كان له مع النبي ﷺ مودة ومحبة.. رافقه في بعض رحلاته قبل الإسلام.

قال ابن هشام في سيرته: «وكان أبو بكر رجلا مألفا لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجرا، ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته»[1].

(1) سيرة ابن هشام، 1/ 249.

أسلم على يديه كبار الصحابة ﷺ وستة من المبشرين بالجنة: سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف.كما أسلم على يديه: الأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وخلق كثير...

أما أمه فقد أسلمت في بداية الدعوة وهاجرت وصبرت.. وأبوه أسلم متأخرا، مات بعد وفاة ابنه بستة أشهر.

أما شكله: فقد كان ﷺ نحيف الجسم، خفيف العارضين، ناتيء الجبهة، غائر العينين، قليل لحم الوجه، ذو لحية كان يخضبها بالحناء يقترب لونها إلى السمرة، شديد بروز الجبين، أنفه رفيعة مدببة، ما يميزه: نحافته الشديدة.

2- إسلامه:

لما بدأ رسول الله ﷺ دعوته بادر إلى الإيمان به عدد ممن كتب الله له السبق إلى السعادة والخير.

وكانت أولهم على الإطلاق أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -عليها من الله السلام-، وبادر النبي ﷺ إلى صديقه الحميم أبي بكر الصديق ﷺ ليخبره بما أكرمه الله به من النبوة والرسالة، ويدعوه إلى الإيمان به، فآمن به دون تردد ولا تلعثم، وأسرع إلى التصديق، وشهد شهادة الحق، فكان أول من آمن به من الرجال على الإطلاق، وكان أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين، وصديقا له منذ عهد قديم، فكان إيمانه أعدل شاهد على صدقه ﷺ.

أسلم أبو بكر الصديق ﷺ وعمره 38 عاما ولازم رسول الله ﷺ منذ بداية الدعوة، وكان من أوائل من أسلم من أهل قريش. وهو والد السيدة الطاهرة العفيفة النقية الصدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة زوج النبي ﷺ.

فلما أسلم آزر النبي ﷺ في نصر دين الله تعالى بنفسه وماله وأنفق في سبيل الله كل ما كسبه من التجارة مباشرة بعد إسلامه. وقد أجمع المفسرون أنه المقصود في قوله تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

لقد جاء الإسلام وسيدنا أبو بكر الصدِّيق ﷺ على نقاء الفطرة وصفاء النفس، فلم يشرب في حياته خمراً، ولم يعبد صنماً، وكان في مخيلته تساؤل كبير عن الحق الذي يعد شفاء للنفوس، حتى أكرمه الله به.

3- مواقفه الخالدة في نصرة خير البرية:

والمتتبع لحياته يجد أثر محبة سيدنا رسول الله ﷺ في بناء شخصيته، فأصبحت حياته وتاريخه منارة ساطعة تشع بأنوارها على صفحات التاريخ الإسلامي.

إن الصديق ﷺ يحمل قلبا شديد الحب والاعتزاز والفخر بهذا الدين فهان عليه أمر الدنيا بجوار دينه، فلا يهمه الأهل أو المال أو الولد، إن كان واحد من هؤلاء عقبة في سبيل دينه.

لقد كان لسيدنا أبي بكر الصديقﷺ مواقف ثبات في الإسلام تنشق منها الأرض وتخر لها الجبال ،وتشرئب إليها الأعناق ،ويتعجب منها العظماء...وهي أكبر دليل على حبه الشديد لرسول الله ﷺ.

يحبهم كل من صفت سريرته ويكرههم العميان والعور

ذكر ابن سعد في طبقاته وابن الجوزي في صفة الصفوة أن الصديق الأكبر ﷺ شهد مع سيدنا رسول الله ﷺ جميع المشاهد، ولم يفته منها مشهد واحد، وثبت معه يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي ﷺ رايته يوم تبوك وكانت سوداء.

قال الزمخشري -رحمه الله-: "إنه -أي أبو بكر-كان مضافا لرسول الله ﷺ إلى الأبد، فإنه صحبه صغيرا، وأنفق ماله كبيرا، وحمله إلى المدينة براحلته وزاده، ولم يزل ينفق عليه ماله في حياته، وزوجه ابنته، ولم يزل ملازما له سفرا وحضرا، فلما توفي ﷺ دفنه في حجرة السيدة عائشة أحب النساء إلى رسول الله ﷺ"[1].

(1) خصائص العشرة الكرام البررة، ص41.

قال ابن كثير -رحمه الله-: "ولم يختلف أهل السير في أن أبا بكر الصديق ﷺ لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في مشهد من المشاهد كلها"[1].

نذكر تلك المشاهد التي شهدها الصديق الأكبر ﷺ باختصار:

1- **الإسراء والمعراج**: وكان للصديق ﷺ موقف مشهور من حادثة الإسراء والمعراج، حيث صدق به دون نقاش، فأنزل الله تعالى فيه مدحاً في القرآن: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر].

وذلك لما رجع النبي ﷺ من الإسراء والمعراج حدث قومه بذلك فكذبوه، وذهب الناس إلى أبي بكر ﷺ فقالوا له: هل لك في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة؟

قال لهم: أوقد قال، إن كان قال فقد صدق وأصدقه في أبعد من ذلك «فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم! قال: يا نبي الله فصفه لي... فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله كلما وصف له منه شيئا قال: صدقت أشهد أنك رسول الله حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه الصديق[2].

2-**يوم الهجرة**: لما أذن الله تعالى لحبيبه ﷺ بالهجرة أخبر أبا بكر الصديق بذلك، ففرح أبو بكر ﷺ، وقال وهو يبكي من شدة الفرح:"الصحبة يا رسول الله"[3].

---

(1) أسد الغابة، 3/ 318.

(2) السيرة لابن هشام، 1/ 398.

(3) صحيح البخاري، كتاب البيوع، 2031.

ثم أعلن سيدنا أبو بكر ﷺ حالة الاستنفار في بيته، فأصبح بيته في حال طوارئ شاملة للتجهيز للرحلة ولِمراقبة حركة قريش ورد فعلهم، ولحماية رسول الله ﷺ، وتقديمه نفسه وأهله في سبيله.

وفي هذه الرحلة المباركة كان أبو بكر الصديق نعم الصديق ونعم الرفيق لرسول الله ﷺ، فإذا به يمشي ساعة أمام سيدنا رسول ﷺ ثم يمشي ساعة خلفه، ويلحظ سيدنا رسول الله ﷺ القلق على صديقه ورفيقه، فسأله عن ذلك فقال: يا رسول الله أذكر الطلب لك من قريش فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي أمامك"[1].

فلما انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا، دخل أبو بكر ﷺ قبل رسول الله ﷺ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقي رسول الله ﷺ بنفسه[2].

فلما دخل الصديق ﷺ الغار بدأ يقطع من ثوبه ويسد الثقوب، فلما رآه النبي ﷺ قال له: أقطعت ثيابك يا أبا بكر؟ قال: أخاف من شيء يؤذيك يا رسول الله.

ومن هذا الموقف العظيم يتبين لنا أن الصديق ﷺ. أحب النبي ﷺ حبا ملك عليه لُبَّهُ وفؤاده وجوارحه، حتى إنه يتمنى أن يفدي النبي ﷺ بنفسه وولده وماله والناس أجمعين.

3-**أول خطيب في الإسلام**: تقول الصديقة بنت الصديق أمنا عائشة رضي الله عنها: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: "يا أبا بكر إنا قليل".

فلم يزل يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل وعشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا، ووطئ أبو بكر، وضرب ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرفها لوجهه، ونزَّ -أي:وثب- على بطن أبي

(1) قصص القرآن للشيخ عبد الحميد كشك.
(2) سيرة ابن هشام، 1/ 485.

بكر، ما يعرفُ وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب.

فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير أنظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك.

فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت: نعم.

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح.

قال: أين هو ؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار.

قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت"[1].

فانظروا إلى شدة حبه لحبيبنا رسول الله ﷺ رغم ما حلَّ به من آلام وجراح وإيذاء، هان كل ذلك في سبيل الدفاع عن محبوبه وعن دعوة الإسلام. ولم يكتف بهذا بل طلب الدعاء لوالدته ليكون أهل بيته كلهم في نصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه ونشر دعوته.

4-**إنفاقه في سبيل الله**: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مني مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر -إن سبقته يوما- فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟" قلت: مثله.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟" قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقك إلى شيء أبدا"[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- معلقا على هذه الحادثة: «كان فعل الفاروق ﷺ فيما فعله من المنافسة والغبطة مباحا، ولكن حال الصديق ﷺ أفضل منه، لأنه خال من المنافسة مطلقا ولا ينظر إلى غيره»[3].

الصديق الأكبر ﷺ لا يرى أمامه إلا محبوبه، لا يلتفت إلى غيره... همه سيدنا رسول الله ﷺ بالعشي والإصباح، وفي العسر واليسر، وفي الفرح والقرح، وفي النوم واليقظة، وفي الجهاد والسلم، وفي كل شيء.

5- **في غزوة بدر الكبرى**: كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وكان للصديق الأكبر ﷺ مواقف رجولية مشهورة، منها استشارة النبي ﷺ للصديق ﷺ في الحرب وقضية الأسرى وغيرها..

6-**في غزوة أحد**: حيث زلزل المسلمون زلزالا شديدا وابتلوا ابتلاء صعبا، فما ثبت مع النبي ﷺ إلا القليل من أصحابه ﷺ.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير، 3/ 41.

(2) رواه الإمام أبو داود في كتاب الزكاة، والإمام الترمذي في كتاب المناقب وقال:هذا حديث حسن صحيح.

(3) الفتاوى، 10/ 72.

وكان الصديق الأكبر ﷺ ذا حنكة ورأي سديد، وكان ﷺ من جملة الذين نزل فيهم قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [آل عمران].

8- **في غزوة بني النضير، وبني المصطلق وفي الخندق، وفي بني قريظة**: كان الصديق الأكبر ﷺ حاضرا في هذه الغزوات حريصا على سيدنا رسول الله ﷺ ومدافعا عنه نحره دون نحره وروحه له الفدا.

9- **يوم الحديبية**: كان له موقف شجاع لما أرادت قريش أن تصد المسلمين عن الكعبة قال ﷺ:"يا رسول الله خرجت عامدا لذا البيت لا تريد حربا أو قتل أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه"[1].

كما شارك ﷺ في الحوار الذي كان بين النبي ﷺ وقريش، كما وافق النبي ﷺ في الصلح، رُغم أن بعض الصحابة ﷺ كانوا يرون في هذا الصلح إجحافا للمسلمين، لكن الصديق الأكبر ﷺ وافق النبي ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يفعل إلا ما يأمره به ربه، وإن ظهر للناس فيه ما يكرهون.

وفي سيرة ابن هشام أن الفاروق ﷺ أتى النبي ﷺ معلنا معارضته لهذا الصلح وهذه الاتفاقية، وقال لرسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وفي رواية: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.

قلت:أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

(1) البداية والنهابة لابن كثير، 4/ 198.

فقال أبو بكر للفاروق: الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله"[1].

هكذا كان جواب الصديق الأكبر ﷺ موافقا لجواب الحبيب المصطفى ﷺ، ولم يكن قد سمع جواب رسول الله ﷺ، فكان ﷺ قلبا وقالبا مع النبي ﷺ، نال هذه الموافقة بمحبته الشديدة وحرصه الشديد على رسول الله ﷺ واتباعه في كل صغيرة وكبيرة؛ إذ المحبة تقتضي موافقة المحبوب في كل شيء في السر والجهر، والمنشط والمكره، وهكذا كان الصديق الكبير ﷺ، وبهذه المحبة نال الصديقية والدرجات العلى في مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

ومضت أيام، وجاء الفتح، فقال سيدنا أبو بكر ﷺ متحدثا عن الفتح العظيم الذي تم في الحديبية بعد تلك الاتفاقية التي أمضاها سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ: (ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قَصُرَ رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجَلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد)[2].

وعلى ذلك فقد كان الصديق ﷺ أسَدّ الصحابة رأيا وأكملهم عقلا.

10-**في غزوة خيبر** وفي نجد وبني فزارة: كانت للصديق ﷺ في هذه المشاهد مواقف سديدة موافقة للنبي ﷺ، سواء في المشورة أم الاجتهاد أم غير ذلك.

11- **في عمرة القضاء**: كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ من جملة من ذهب مع سيدنا رسول الله ﷺ ليعتمروا عمرة القضاء مكان عمرتهم التي صدهم المشركون عنها.

12-**في سرية ذات السلاسل**: في هذه السرية ظهر أن الصديق ﷺ كان ذا مواقف متميزة في بناء الرجال، وتقديرهم واحترامهم، وفي الحفاظ على أعمدة الدين وأسسه كالصلاة والزكاة والصوم...

---

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 316. صحيح البخاري، باب إثم من عاهد ثم غدر، ح3011.
(2) خطب أبي بكر الصديق ﷺ لمحمد أحمد عاشور، ص117.

13-**يوم الفتح الأعظم لمكة المكرمة**: حيث جهز الصديق ﷺ نفسه ليكون مع رسول الله ﷺ في هذه المَهَمة الكبرى، وثبت معه ثباتا لا نظير له، ودافع عن حوزة الإسلام أمام أبي سفيان لم يخف في الله لومة لائم.

14- **يوم حنين**: كان ﷺ من الصحابة الذين ثبتوا يوم حنين الذي لحقت فيه بالمسلمين هزيمة أول المعركة جعلتهم يفرون من هول الفاجعة، وبسبب غرورهم وإعجابهم بكثرتهم، إلا أن بعض الصحابة يتقدمهم الصديق الأكبر ﷺ صبروا وثبتوا في ساحة الوغى رُغم هول المفاجأة، فاستحقوا بذلك النصر ؛ فنصرهم الله نصرا عزيزا مؤزرا.

15- **في الطائف**: في حصار الطائف «وقعت جراحات في أصحاب النبي ﷺ وشهادة، ورفع سيدنا رسول الله ﷺ عن أهل الطائف الحصار ورجع إلى المدينة، وممن استشهد من المسلمين في هذه الغزوة عبد الله بن أبي بكر ﷺ رمي بسهم فتوفي منه بالمدينة بعد وفاة النبي ﷺ»[1].

وعندما قدم وفد ثقيف للمدينة ليعلنوا إسلامهم فما إن ظهر الوفد قرب المدينة حتى تنافس كل من أبي بكر والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد لرسول الله ﷺ، وفاز الصديق ﷺ بتلك البشارة.

16- **تبوك**: في غزوة تبوك أعطى النبي ﷺ لواءه الأعظم إلى أبي بكر ﷺ، وفي هذه الغزوة أنفق أبو بكر الصديق ﷺ كل ماله في سبيل الله...

17-**في مقدمة الحجيج**: وها هو الصديق ﷺ يبعثه النبي ﷺ أميرا على الحج سنة تسع هجرية يعلم الناس مناسكهم، وفي وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم ونفرهم، ورميهم للجمرات وسعيهم... ليمهد الطريق لسيدنا رسول الله ﷺ؛ "لأن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة، والحبيب كره حالة المشركين هذه، وأمر الصديق ﷺ يمهد له الطريق حتى لا يرى تلك المناظر، وفي هذه الحادثة نزلت سورة التوبة، وكانت حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه توطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع"[2].

(1) تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، جميل عبد الله المصري، ص151.
(2) صحيح السيرة النبوية لإبراهيم صالح ، 625. السيرة النبوية لأبي شهبة 2/ 537.

وقد نادى الصديق ﷺ في الناس أن عهد الأصنام قد ولى وانقضى، وأن شمس الإسلام قد أشرقت فما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، هكذا انتشر بين قبائل العرب يدعوهم إلى دين العدل والرحمة والمحبة والكرامة، فبعد هذه الجولة الدعوية بدأت القبائل ترسل وفودها معلنة إسلامها.

17- **يوم التحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى**: لقد لازم سيدنا أبو بكر ﷺ سيدنا رسول الله ﷺ في حله وترحاله، وحضر جميع غزواته، وكان حارسه الشخصي في بدر الكبرى. وبلغ من العلم والفضل والتقوى ما رجح به على الأمة جمعاء، فقد كان تالياً لكتاب الله عز وجل، عارفاً بمعانيه، مدركاً لدلالته وأسراره وكنهه، ومن ذلك أنه كان يفتي في زمن سيدنا رسول ﷺ وفي مجلسه. ولما نزل على رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر] بكى الصِّدِّيق ﷺ، ولما قال مولانا رسول الله ﷺ: «إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»[1] بكى الصديق ﷺ لمعرفته أن سيدنا رسول الله ﷺ يخبرهم بقرب أجله.

ولما توفي حبيبنا رسول الله ﷺ فاضطربت المدينة وزلزلت بأهلها، وأظلم عليهم نهارها، وهاج الناس وماجوا وافتقدوا أنفسهم، وأصبحوا في أمر مريج حتى إنهم لينكرون موته ﷺ ويستبعدون وقوعه، لكن سيدنا الصديق كان ﷺ أعلمهم بالله وأفهمهم لدينه، وأثبتهم في المحن والشدائد فقد توجه، إلى سيدنا رسول الله ﷺ فَأَكَبّ عَلَيْهِ وَكَشَفَ وَجْهَهُ وَمَسَحَهُ وَقَبّلَ جَبِينَهُ، ووضع فيه بين عينيه، ووضع يده على صدره، وَجَعَلَ يَبْكِي، ويقول: وانبياه، واصفياه واخليلاه.. طبت حيا وميتا يا رسول الله"[2]، ثم توجه إلى المنبر يعلن للمسلمين حقيقة الوفاة بتلاوته لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران].

(1) رواه الإمام البخاري -رحمه الله- في فضائل الصحابة.
(2) عيون الأثر، 2/ 433. تاريخ الإسلام للذهبي.

بهذه الروح العالية والفهم الثاقب والثبات المتناهي يعيد ﷺ للصحابة ﷺ عقولهم، وللتائهين صوابهم، وللحائرين رشدهم.

4- من فضائله ومناقبه:

عن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائما ؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضا؟ قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا ودخل الجنة»[1].

وعن أبي سعيدٍ الخُدري ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الدرجات العُلَى يراهم مَن أسفل منهم، كما يُرَى الكوكبُ الطالع في الأُفق مِن آفاق السماء، وإنَّ أبا بكر وعُمرَ منهم وأنْعَمَا»[2].

عن حُذَيفةَ بنِ اليمان ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي لا أَدْري ما قَدْرُ بقائي فيكم، فاقْتدُوا باللَّذَيْن مِن بعدي، وأشار إلى أبي بكْرٍ وعُمر»[3].

ويروي الإمام أبو الفرج ابن الجوزي-رحمه الله- بسنده إلى سويد بن غفلة قال: «مررتُ بنفرٍ من الشِّيعة يتناوَلون أبا بكر وعمر -رضي الله عنْهما- فدخلتُ على عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، فقلت: يا أمير المؤمنين، مررتُ بنفرٍ مَن أصحابك يَذكُرون أبا بكر وعمر -رضي الله عنْهما- بغير الذي هما له أهل، ولولا أنهم يرَوْن أنَّك تُضمِر لهما مثلَ ما أعلَنُوا، ما اجَترَؤُوا على ذلك.

قال عليٌّ: أعوذ بالله، أعوذ بالله أن أُضمِر لهما إلا الذي ائتمنَني النبي ﷺ عليه، لعَن اللهُ مَن أضمر لهما إلا الحسَن الجميل، هما أخَوَا رسولِ الله ﷺ، وصاحباه ووزيراه- رحمة الله عليهما.

(1) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، ح1028.
(2) سنن ابن ماجه، باب فضل أبي بكر الصديق ﷺ، ح96. قال الألباني: صحيح.
(3) سنن ابن ماجه، باب فضل أبي بكر الصديق ﷺ، ح97. قال الألباني: صحيح. سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما، ح3663.

ثم نهض دامعَ العينين يبكي قابضًا على يديَّ، حتى دخَل المسجد فصعد المنبر وجلَس عليه متمكِّنًا، قابضًا على لحيته، وهو ينظر فيها وهي بيضاء، حتى اجتَمَع لنا الناس، ثم قام فتشهَّد بخطبةٍ مُوجَزة بليغة، ثم قال:

«ما بال أقوام يَذكُرون سيِّدَي قريش، وأبوَي المسلمين بما أنا عنه متنزِّهٌ، وممَّا قالوه بريءٌ، وعلى ما قالُوا مُعاقِب؟! أمَا والذي فلَق الحبَّة وبرَأ النَّسمة، لا يحبُّهما إلا مؤمنٌ تقيٌّ، ولا يبغضهما إلا فاجرٌ شقيٌّ».

صَحِبا رسولَ الله ﷺ على الصدق والوفاء، يأمُران وينهيان، ويغضَبان ويُعاقبان، فما يَتجاوَزان فيما يَصنَعان رأيَ رسولِ الله ﷺ ولا كان رسولُ الله ﷺ يرى غيرَ رأيهما، ولا يحبُّ أحدًا كحبِّهما.

مضى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهما، ومضَيَا والمؤمنون عنهما راضون، أمَّره رسول الله ﷺ على صلاة المؤمنين، فصلَّى بهم تسعةَ أيامٍ في حياة رسول الله ﷺ.

فلمَّا قبَض الله نبيَّه واختار له ما عنده، ولاَّه المؤمنون ذلك، وفوَّضوا إليه الزكاة، ثم أعطوه البيعة طائعين غير مكرهين، وأنا أوَّل مَن سَنَّ له ذلك من بني عبد المطَّلِب، وهو لذلك كارهٌ، يَوَدُّ لو أنَّ مِنَّا أحدًا كَفَاه ذلك.

وكان والله خيرَ مَن أبقى؛ أرحَمه رحمةً، وأرأفه رأفَةً، وأسنَّه ورعًا، وأقدَمه سِنًّا وإسلامًا، شبَّهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفةً ورحمةً، وبإبراهيم عفوًا ووَقارًا، فسار بسيرةِ رسول الله ﷺ حتى مضَى على ذلك - رحمة الله عليه.

ثم ولي الأمرَ بعده عمرُ ﷺ وكنتُ فيمَن رضي، فأقام الأمرَ على منهاج رسول الله ﷺ وصاحبه، يتبع أثرهما كما يتبع الفصيل[1] أثرَ أمِّه. وكان والله رفيقًا رحيمًا بالضُّعَفاء، ناصرًا للمظلومين على الظالمين، لا تَأخُذه في الله لومة لائِم، وضرَب الله الحقَّ على لسانه.

أعزَّ الله بإسلامه الإسلامَ، وجعَل هجرته للدين قوامًا، وألقى الله له في قلوب المنافقين الرهبةَ، وفي قلوب المؤمنين المحبَّة، شبَّهه رسول الله ﷺ بجبريل، فظًّا غليظًا على الأعداء.

(1) الفصيل: ولد الناقة.

فمَن لكم بمثلهما؟ رحمة الله عليهما، ورزَقَنا المُضيَّ في سبيلهما. فمَن أحبَّني فليحبَّهما، ومَن لم يحبَّهما فقد أبغضني، وأنا منه بريء. ولو كنتَ تقدَّمت إليكم في أمرهما، لعاقبتُ في هذا أشدَّ العقوبة.

ألاَ فمَن أوتيت به يقول بعد هذا اليوم، فإنَّ عليه ما على المفتري.

ألاَ وخير هذه الأمَّة بعد نبيِّها أبو بكر وعمر -رضِي الله عنْهما- ثم الله أعلَم بالخير أين هو.

أقول قولي هذا وأستَغفِر الله لي ولكم"[1].

ثانيا: أبو بكر الصديق ﷺ أول الخلفاء الراشدين:

1 - سقيفة بني ساعدة وبيعة الصّدّيق ﷺ على الخلافة:

إن الإسراع إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة كان موضع انتقاد الروافض؛ لأن المجتمعين تركوا أمر تجهيز رسول الله ﷺ، وسارعوا إلى البيعة، مخافة الفتنة وتفرق الأمة بعد اجتماعها، واتكلوا في أمر تجهيز رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب وغيره من أهل البيت ﷺ. وقد اتخذ أهل السنة بعد هذا من واقع الإسراع في البيعة للخلافة دليلًا على وجوب الخلافة وأهمية هذا المنصب لتصريف شئون المسلمين.

اجتمع الأنصار ﷺ في سقيفة بني ساعدة أول ما اجتمعوا حيث طلب سعد بن عبادة الأمر لنفسه؛ لأنه يرى أن للأنصار سابقة في الجهاد ورفعة شأن الدين والذود عن رسول الله ﷺ ونصرته، بينما عجز المهاجرون عن منع الإيذاء عنه وقصروا في نصرته وهو منهم ونشأ بينهم.

لكن وسرعان ما لحقهم المهاجرون إلى ذلك الاجتماع ودارت المناقشات بينهما على من له الحق في تولي الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ورد المهاجرين على لسان أبي بكر الصديق ﷺ حيث دافع عنهم من حيث إنهم أول من صدق رسول الله ﷺ، وصبر معه على الشدة

(1) تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، ص122-124.

والبلاء، مع اعترافه بفضل الأنصار لما قاموا به من نصرة رسول الله ﷺ والدفاع عنه وعن دعوته، وقال أبو بكر ﷺ: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور). أما خطاب عمر بن الخطاب ﷺ فكان أشد لهجة، حيث أصر على أنه لا ينبغي أن يتولى الأمر أحد من غير المهاجرين.

فلما رأى أبو بكر ﷺ احتداد المناقشات وظهور الخلاف سافرًا، صرح بحديث القرشية ووقف طالبًا قيام المسلمين للاختيار بين عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة بن الجراح. وكما كان له الفضل قبل ذلك في إدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين حينما أكد وفاة رسول الله ﷺ، فقد ظهر فضله للمرة الثانية في حسم الخلاف بين المهاجرين والأنصار. ولكن قام الاثنان -عمر وأبو عبيدة- طالبين من أبي بكر الصديق ﷺ أن يبسط يده ليبايعانه لأنه أفضل المهاجرين وثاني اثنين في الغار وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين. فتابعهما من الأنصار قيس بن سعد ﷺ ليبايع أبا بكر فكان أولهم، فقبل الأنصار مشورته وتتابعوا عن طيب خاطر للمبايعة، وكانت دعامة موقفه ما قاله لهم: "كرهت أن أنازع قومًا حقا جعله الله لهم".

وهكذا امتثل الأنصار ﷺ لدعوة أبي عبيدة ﷺ حين اعترف بفضل الأنصار ﷺ من حيث إنهم أول من نصر وآزر فلا يصح أن يكونوا أول من يبدل ويغير. ولم يتخلف أحد عن بيعة أبي بكر من الأنصار سوى سعد بن عبادة وهو الذي يمثل المعارضة العنيفة في الاجتماع وكان يطلب استخلافه الأمر بدلًا من أبي بكر. أما تأخر علي بن أبي طالب ﷺ عن البيعة الذي كان مثار بحث ومجادلة بين أهل السنة والشيعة، فإن مصادر أهل السنة كافة تجمع على قيامه بالبيعة لأبي بكر ﷺ والترحيب بها بمثل قوله: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدًا، قد قدمك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا فمن ذا الذي يؤخرك لتوجيه دنيانا؟».

وتم الأمر لأبي بكر الصديق ﷺ بلا عنف ولا إكراه وبحرية تامة، فتمت أولًا في اجتماع السقيفة بحضور خاصة المسلمين ثم كانت بيعة العامة في اليوم التالي على المنبر، ولعل هذه الطريقة هي أساس نظرية أهل السنة في إتمام البيعة بواسطة أهل الحل والعقد أي خاصة المسلمين، وهم ذوي الدين والعلم والرأي.

لكن الشيعة الروافض قالوا بأن النبي ﷺ وصى بالخلافة لعلي بن أبي طالب ﷺ وحاولوا حشد بعض الأحاديث النبوية الشريفة ولووا أعناقها لتخدم غرضهم. ولم يقف أهل السنة مكتوفي اليدين أمام الحجج الرافضية بل قابلوها بما يضاهيها من أسانيد متصلة من هذا القبيل لإثبات صحة إمامة أبي بكر وتوليه الخلافة برضى المسلمين كافة وانعقاد الإجماع على بيعته.

وخير دليل على خلافته إضافة إلى اختياره من قبل المسلمين، إمامته للصلاة، فأمر النبي ﷺ لأبي بكر الصديق بأن يصلي بالناس في مرضه، وقيامه بالصلاة خلفه كان قصدًا من رسول الله ﷺ لتنبيه المسلمين إلى أن أبا بكر الصديق ﷺ أحق بالخلافة بعده وأنه لا مطمع لأحد بعده غير الصّديق ﷺ. فهي إشارة واضحة إلى انتقال الخلافة إلى أبي بكر بعد رسول الله ﷺ. ولا غرو فقد اتفق السلمون كافة -سنييهم وشيعتهم- على أن الصلاة هي أهم مطالب الدين وأول أركانه العملية، بيد أن أهل السنة قاسوا الإمامة الكبرى -وهي الخلافة- على الإمامة الصغرى، وهي الصلاة، إذ ليس في أركان الإسلام بعد التوحيد أفضل من الصلاة.

أضف إلى ذلك أنه لم يظهر معارض واحد حينئذ بين المسلمين يطلب منه أن يتنحى عن إمامة الصلاة، ولا قال رجل من الأنصار منا مصل ومنكم مصل، -كما قالوا منا أمير ومنكم أمير-.

ولئن ذهب أهل السنة عامة إلى أن خلافة أبي بكر الصديق ﷺ تمت عن طريق الاختيار، أي اختيار الأمة له، إلا أن بعضهم استدل على أن هناك نصًا على إمامته سواء أكان خفيًا أم جليًا، ويستدلون بما كان من امرأة أتت النبي ﷺ فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه فقالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك-كأنها تريد الموت-؟ قال: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر»[1].

وفي هذا الحديث النبوي الشريف نصًا جليًا على استخلاف أبي بكر الصديق ﷺ، أضف إليه إجماع المسلمين الأوائل جميعًا على تسميتهم أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ. أضف إليه

(1) صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، ح3459.

الحديث الذي ذكرناه في المحور السابق قول النبي ﷺ في وجعه الذي توفي فيه لأم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها: «ادعوا إلي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا، فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن: أنا أولى. ويأبى الله عز وجل والمؤمنون إلا أبا بكر». كما استدلوا بما رواه: أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه سمعه يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ[1] عَلَيْهَا دَلْوٌ[2]، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا[3] أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ[4] غَرْبًا[5]، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا[6] مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ[7]»[8].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُرِيَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ نِيطَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنِيطَ عُمَرُ بِأَبِي بَكْرٍ، وَنِيطَ عُثْمَانُ بِعُمَرَ». قَالَ جَابِرٌ: فَلَمَّا قُمْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْنَا: أَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا تَنَوُّطُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَهُمْ وُلاَةُ هَذَا الأَمْرِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ[9].

2- شخصيته السياسية ومنهاجه في الحكم:

تشير خطبة الصديق ﷺ يوم تولي أمر الأمة إلى الخطوط العامة لسياسته في الأمة ومنهاجه في الحكم، فلم يكن خطابا كخطاب الساسة اليوم، يُنقض في اليوم التالي، ولكنه منهاج عمله وسياسته لرعيته، يقول في خطبته الشهيرة:« أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.

(1) القليب: البئر التي لم تبن جوانبها بالحجارة ونحوها.
(2) الدلو: إناء يُستقى به من البئر ونحوه.
(3) الذنوب: الذنوب الدلو الممتلئ.
(4) استحالت: تحولت وصارت.
(5) الغرب: الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد ثور.
(6) عَبْقَرِيُّ القوم: سَيِّدُهُم وكَبِيرُهُم وقَوِيُّهم، والعبقري الرجل القوي الفطن حاد الذكاء ذو الصفات الحميدة.
(7) ضرب الناس بعطن: شربت إبلهم وشبعت حتى نامت مكانها وبركت لتعود للشرب مرة أخرى.
(8) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب نزع الماء من البئر حتى يروى الناس، ح6616.
(9) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، 3/ 75. سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ح4636. مسند أحمد بن حنبل، 3/ 355. صحيح ابن حبان، 15/ 343.

الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء،

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

يعد هذا الخطاب أول خطاب سياسي للمسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولقد كان فريدا من نوعه له أثر كبير في السامعين لما انطوى عليه من معان سامية رسمت دعائم السياسة ومنهاج الحكم الأنموذجي الراشد القائم على العدل والشورى والمساواة والتواضع والسهر على مصالح المسلمين.

ويمكن تلخيص أهم ما جاء في هذه الخطبة فيما يأتي:

– التواضع ونكران الذات: وقد عبر عنه بقوله: (فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم)، وهو خير الناس بعد رسول الله ﷺ، والتواضع من شيم الرجال وأخلاق الصالحين.

– الزهد في الإمارة وعدم الحرص عليها: وهذا الأمر يمكنه من سياسة الأمور بالعدل والقسط دون مداراة ولا مداهنة، لأنه لا حظ للنفس فيها ولا رغبة، ولا يخشى على زوالها من يده إذا اقتضى الأمر، ولقد عبر عن هذه الحقيقة بعمله وممارسته حينما رد على المسلمين بيعتهم وخلع نفسه هيبة ورهبة إلا أنهم أصروا على بقائه بشدة.

– إقراره والتزامه متابعة رسول الله ﷺ: وسيرته في أمته كما جاء في روايات أخرى لهذه الخطبة: «وإنما أنا متبع ولست بمبتدع»[2]. وهذا الأمر يضمن له انقياد المسلمين لأنهم قد تعودوا معاملة رسول الله ﷺ لهم، فقد كانت في غاية السمو والرفعة.

– العدل والمساواة بين الناس كافة: وذلك بتعهده بإقامة العدل بين الناس والسعي في أمورهم سعيا يرضيهم؛ وذلك بحماية حقوق الضعيف من اعتداء القوي الذي قد يتسلط

(1) البداية والنهاية لابن كثير، 5/ 269.
(2) تاريخ الطبري، 2/ 460.

عليه، فلا تمنعهم الشفاعة والتوسط ولا القرابة ولا الجاه ولا السلطة من إقامة شرع الله والمساواة بين جميع خلق الله.

– التزامه مبدأ الشورى: الذي أمر الله به في كتابه وسلكه نبيه ﷺ في حياته، ولقد عبر الصديق عن هذا المبدأ تعبيرا في غاية التواضع والأدب فقاسم المسئولية جميع أفراد الأمة وذلك حينما قال: «فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني».

– التأكيد على فريضة الجهاد وضرورتها في حياة الأمة ضمانا لاستمرار العزة، ودوام القوة، والحفاظ على هيبة دولة المسلمين وأمتهم حتى لا يتعد عليها الأعداء أو يتجرأون عليها، ثم يتحقق بذلك اتساع رقعة الإسلام وانتشار مبادئه ودعوته في ربوع الأرض كلها، وتلك هي الرسالة العظمى –(تبليغ دعوة الإسلام وأخلاقه ومبادئه للناس)– التي تقع أمانتها على أعناق جميع أبناء الأمة.

– التأكيد على الاستقامة الدينية والاجتماعية: باحترام حدود الله وعدم الوقوع في الرذائل والفواحش، التي تفسد المجتمع وتستوجب البلاء من الله وتهلك الأمة.

– التزامه الصدق في القول والعمل، من الخالق والخلق، وحفظه الأمانة: وهذا ما أكده قوله: «الصدق أمانة، والكذب خيانة»؛ فليست خطبته شعارات مدبجة، وبرامج انتخابية، تذهب أدراج الرياح مع مرور الأيام، ولكن خطبته كانت صدقا وعملا، حتى توفاه الله تعالى وقد شمل عدله كل رعيته، ليس المسلمين فحسب، بل حتى غيرهم من أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم.

– التأكيد على ضرورة الالتزام بمنهاج الله: وذلك باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وطاعة المسلمين لأمره مرهونة بطاعته لله ورسوله، فإذا اختلت علاقته بمصدر التشريع فلا طاعة له، وهذا ما أشار إليه بقوله: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم».

هذه هي أهم المبادئ السياسية والدينية التي أكد الصديق ﷺ على ضرورتها وهي كما نلاحظ شاملة جامعة للحكمة وسداد الرأي، وتمسك بالدين وحث على الجهاد في سبيل

الله، وإرشاد المسلمين إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما استوعبت مقومات السياسة الشرعية المستقيمة ومنهاج الحكم السليم الراشد الذي يستمد روحه من مقاصد الشريعة الإسلامية ومطالبها.

لقد بدا الصديق ﷺ من خلال هذا الخطاب العملي ومن خلال تلك الإجراءات السياسية الأولى التي بادر بها شخصية سياسية حكيمة وقوية ومهيبة ضمنت له ثقة الأمة على اختلافها واتساعها، كما استطاع بفضل هذه الثقة أن يستمسك بجميع مقاليد الأمور بصورة قلَّ نظيرها، فتحققت في عهده كثير من المنجزات السياسية رغم قصر مدة خلافته، وأقام في الناس الدين، وحافظ على دعائمه.

ولقد بدت الحنكة السياسية التي تمتع بها الصديق ﷺ في المنهاج الذي سلكه في مواجهة المشكلات السياسية والدينية والاجتماعية التي اعترضت طريق الخلافة منذ بداية توليه أمر الأمة إلى أن وافاه الأجل.

ولقد ظل الصديق ﷺ مع كل هذه الأعمال والمنجزات التي قام بها في خلافته رغم عهدها القصير حريصا على حقوق الله وحقوق المسلمين وحقوق غيرهم من أهل الذمة، فتسنم بذلك الذروة العليا في بنيان الحكام المخلصين الصادقين على مر التاريخ فكان بذلك حجة عليهم. ولقد أدرك خليفته من بعده الفاروق عمر ﷺ هذه التبعة التي ألقى بها إليه الصديق فقال:"رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا". وذلك حينما بلغته الوصية التي أوصى بها ابنته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– عند دنو أجله ﷺ حيث قال: "انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي فإني قد كنت أستحله".

فلما بحثوا عن تركته ما وجدوا عنده دينارا ولا ذهبا غير خادم نوبي ولقحة ومحلب.

رحم الله أبا بكر ورضي الله عنه لقد كان خليفة قدوة بما تمثل من معان إسلامية رائعة فكان حجة دامغة على الحكام وأصحاب المسئوليات الجسام في كل زمان ومكان.

3- سياسته الداخلية:

عزم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ على تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته متخذا من الصحابة الكرام ﷺ أعوانا له؛ فجعل أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح ﷺ وزيرا للمالية وأسند إليه شئون بيت مال المسلمين.

وتولى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ القضاء (أي وزارة العدل)، وباشر الصديق ﷺ القضاء بنفسه أيضا، وحافظ على جميع ما ثبت في عهد النبوة وطبقه بحذافيره، ووضع تنظيمات قضائية جديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية ومواجهة المستجدات، ولم تفصل ولاية القضاء عن الولاية العامة. كما كانت مصادر القضاء في عهده: أن ينظر في كتاب الله تعالى، فإن لم يجد فسنة رسوله ﷺ، فإن لم يجد سأل الناس هل قضى رسول الله ﷺ في أمر كهذا، فإن وجد حمد الله وإن لم يجد، دعا رءوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمعوا على أمر قضى به، وكان ﷺ يرى الشورى ملزمة ولا يجوز للإمام مخالفة أهل الشورى إن اجتمعوا على أمر.

فنخلص إلى أن مصادر القضاء في عهده أربعة: الكتاب والسنة والإجماع باستشارة كبار الصحابة ﷺ، والاجتهاد والرأي.

أما الكتابة أو ما يعرف بوزارة البريد والمواصلات، فقد تولاها زيد بن ثابت ﷺ وأحيانا يكتب له من يكون حاضرا من الصحابة كعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما.

واستعمل على البلدان العمال والولاة وعهد إليهم بالولاية العامة في الإدارة والحكم والإمامة وجباية الصدقات... وكان يقتدي برسول الله ﷺ في حسن اختيار الولاة والعمال، ولذلك نجده أقر عمال رسول الله ﷺ على ولايتهم ولم يعزل أحدا منهم إلا أن يعينه في مكان آخر أكثر أهمية من الأول.

ويمكن تلخيص أهم مسئوليات الولاة فيما يأتي:

- إقامة الصلاة وإمامة الناس.

- الجهاد القتالي: كان يقوم به أمراء الأجناد في بلاد الفتح.
- إدارة شئون البلاد المفتوحة وتعيين القضاة والعمال عليها من قبل الأمراء وبإقرار الخليفة.
- أخذ البيعة للخليفة وقد أخذ ولاته في اليمن ومكة والطائف البيعة له.
- جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء، وأخذ الجزية من أهل الذمة ووضعها محلها.
- تعليم الناس أمور دينهم ونشر الإسلام في البلاد التي يتولونها.

وأطلق المسلمون على الصديق لقب خليفة رسول الله ﷺ ورأوا ضرورة تفريغه للخلافة؛ لأن أبا بكر كان رجلا تاجرا يغدو كل يوم من السوق فيبيع ويبتاع، فلما استخلف طلب منه أن يتفرغ لشئون الدولة والأمة على أن يفرض له عطاء. بلغ ثلاث مائة دينار معاشات كل سنة. وهكذا وقف الصحابة ﷺ في فهم راقي بولاية الدين وولاية الحكم يفرضون لإمامهم رزقا يغتني به عن التجارة بعد أن صار عاملا للأمة تملك منه الوقت والجهد والفكر، فقرروا بذلك معنى بديعا يفصل الذمة المالية للأمة عن ذمة الحاكم وهو المعنى الذي لم يعرفه الغرب إلا في عهوده القريبة. بل أين البشرية اليوم من أولئك الصحابة ﷺ؟ لقد أكد الصديق ﷺ أن ولاية الدين وتولي شئون الحكم ليست مغنما في حد ذاتها وأما ما يفرض لها من رزق فلما تقضي إليه اشتغال عامل الأمة عن أمر نفسه.

4- أعماله في خلافته:

أ- طاعة رسول الله ﷺ في إنفاذ جيش أسامة ﷺ:

كان رسول الله ﷺ قد استعمل أسامة بن زيد ﷺ وأمره بالتوجه إلى حدود الشام للأخذ بثأر من قتل في غزوة مؤتة، وقد كان رسول الله ﷺ قد ضرب البعث على أهل المدينة ومن حولها، وفيهم عمر بن الخطاب ﷺ وعسكر جيش أسامة بالجرف، فاشتكى رسول الله ﷺ ثم وجد من نفسه راحة فخرج رسول الله ﷺ عاصبا رأسه فقال:

«أيها الناس أنفذوا جيش أسامة»[1]. وقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله وأيم الله إنه كان خليقا للإمارة وأيم الله إنه لمن أحب الناس إلي من بعده»[2]. وذلك لأن الناس طعنوا في إمارة أسامة لأنه كان شابا لم يتم العشرين من عمره.

توفي رسول الله ﷺ ولم يسر الجيش، وارتد كثير من العرب ونجم النفاق واشرأبت أعناق اليهود والنصارى وبقي المسلمون لا يدرون ماذا يصنعون لوفاة نبيهم وقلة عددهم وكثرة عدوهم. فقال الناس لأبي بكر ﷺ: إن جيش أسامة جند المسلمين، والعرب قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين.

فماذا يصنع أبو بكر ﷺ؟ إنهم يعترضون على إمارة أسامة ﷺ لصغر سنه، ويعترضون على إرسال جيش المسلمين لارتداد العرب وقلة عدد المسلمين وخوفهم على مركزهم بالمدينة. غير أن رسول الله ﷺ كان يشدد في إرسال جيش أسامة، وقد أخذ أبو بكر ﷺ عهدا على نفسه بأن لا يعصي الله ورسوله. فهل يخالف أمر رسول الله ﷺ؟ كلا فإن ذلك ليس من طبيعته ولا من خلقه، وإنما خلقه الثبات إلى آخر لحظة وتنفيذ أوامر رسول الله ﷺ بكل دقة في جليل الأمر وهينه مهما كلفه ذلك، لقوة إيمانه وثبات يقينه. لهذا كانت إجابته للمعترضين في غاية القوة حيث قال:

«والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته».

وقال لعمر لما أرسله أسامة يستأذنه في الرجوع وطلب إليه الأنصار إن أبى أن يولي عليه من هو أقدم سنا من أسامة: «لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ» .

فقال عمر: إن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة. فوثب أبو بكر وكان جالسا يأخذ بلحية عمر فقال له: «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه».

---

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 650.

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة ، ح3524.

فخرج عمر إلى الناس بعد أم سمع ورأى من أبي بكر ما رأى. فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله ﷺ.

خرج أبو بكر ﷺ حتى أتى الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: «والله لا تنزل ووالله لا أركب وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة. فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وترفع عنه سبعمائة خطيئة» حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل. فأذن له. -ومعنى ذلك أنه يستأذن أسامة - قائد الجيش- أن يترك له عمر لأنه كان في الجيش-.

ثم قال: يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا أو شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا. اندفعوا باسم الله».

وقال لأسامة: «اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ. ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل ولا تقصرن من شيء من أمر رسول الله ﷺ ولا تعجلن لما خلفت عن عهده»[1].

فسار أسامة ﷺ وأوقع بقبائل من قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوما سوى مقامه ومنقلبه راجعا من غير أن يفقد أحدا من رجاله.

وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين فإن العرب قالوا لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه.

(1) تاريخ الطبري، 2/ 461-462.

وكان إنفاذ بعث أسامة بن زيد ﷺ مباشرة بعد بيعة أبي بكر الصديق ﷺ وذلك يوم الأربعاء 14 من ربيع الأول سنة 11 هـ.

ب- حروب الردة:

لما توفي رسول الله ﷺ نجم النفاق وارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل به ﷺ ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها.

ولقد ازدادت حركة الردة عقب وفاة رسول الله ﷺ واتخذت أشكالا وصورا عديدة بين كثير من القبائل العربية، وذلك عقب انتخاب أبي بكر الصديق ﷺ للخلافة.

فادعى النبوة بعض العرب في الجهات النائية عن المدينة ومكة مثل اليمامة واليمن توصلا إلى الملك والرياسة والتغلب على القبائل المجاورة لهم، فمنهم من حاول محاكاة القرآن تغريرا بعقول السذج من العرب فجاء كلامه سخيفا مضحكا لا معنى له، ومنهم من لم يقتصر على ذلك بل أتى بالأعاجيب وما هي إلا شعبذة وكهانة وسحر مبين لكنهم افتضحوا وظهر كذبهم ونفاقهم. فأحلوا المحرمات وارتكبوا الفواحش فكان مصيرهم الخذلان والفشل.

ولقد كان الارتداد عاما في بعض المناطق، وخاصا في مناطق أخرى، فسارع أبو بكر الصديق ﷺ إلى مواجهة حركة الردة على اختلاف اتجاهاتها ودوافعها، بأحزم الوسائل وأشدها صرامة وجرأة، وأبى أن يتوانى ويتساهل معهم لأنه رأى في خروجهم طعنا في الإسلام ونقضا لأركانه وتسفيها لمبادئه وتسخيفا لمثله. وقبل ذلك نكثا للموثق الذي واثقوه به على عهد الله ورسوله ﷺ، وكان الباعث الأساس الذي بعث الصديق الأكبر إلى مواجهة المرتدين بذلك البأس والشجاعة والجرأة المستميتة هو حماية كيان الإسلام من مختلف جوانبه حتى يضمن الاستمرار الذي أراده الله له لكي يسود الأمن والسلام ويحيى الإنسان على صلة بصائغ الوجود وخالق الأكوان.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر ﷺ بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : "كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق"[1].

وأول شيء بدأ به خليفة رسول الله ﷺ قبل المواجهة العسكرية إرسال الكتب والرسائل إلى أهل الردة يدعوهم فيها إلى الرجوع إلى الإسلام وقواعده، ويبين لهم فيها حكم الإسلام وحدوده فيهم إن هم أبوا، أخذا بمفهوم الجهاد في الإسلام، ومما جاء في كتبه إلى المرتدين:

"بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه. سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. نقر بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده...

إني بعثت إليكم (فلانا) في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه. ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبق على أحد منهم قدر عليه..."[2].

كما كتب عهودا إلى قادة جنده:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ "لفلان" حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله. سره وعلانيته.

(1) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ، ح6855.
(2) تاريخ الطبري، 2/ 482.

وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ...»[1].

وكان إرسال البعوث إلى المرتدين في شعبان سنة 11هـ (تشرين الأول أكتوبر سنة 632م).

فعقد خليفة رسول الله ﷺ أحد عشر لواء. وفيما يلي أسماء قادتهم ووجهتهم:

1- سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ: سار إلى طليحة بن خويلد الأسدي في شرق المدينة، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح.

2 - عكرمة بن أبي جهل: إلى مسيلمة الكذاب باليمامة.

3 - المهاجر بن أبي أمية: إلى الأسود العنسي بصنعاء ومساعدة المسلمين هناك. ثم يمضي إلى كندة بحضر موت.

4- خالد بن سعيد إلى مشارف الشام ومساعدة جيش عمرو بن العاص.

5- طريفة بن جابر إلى قبائل سليم وهوازن المعادية للشمال الشرقي للمدينة.

6- حذيفة بن محصن الغلفاني: إلى أهل دبا في عمان.

7- عرفجة بن هيثنة: إلى أهل مهرة.

8- شرحبيل بن حسنة: شد أزر جيش عكرمة بن أبي جهل فإذا فرغ من اليمامة لحق بخيله إلى قضاعة.

9- معن بن حاجز: إلى بني سليم ومن معهم من هوازن

10- السويد بن مقرن: إلى تهامة باليمن.

---

(1) المصدر نفسه.

11-العلاء بن الحضرمي: إلى البحرين.

هؤلاء هم القادة الذي اختارهم أبو بكر الصديق ﷺ لقتال أهل الردة، وعقد لكل واحد منهم لواء، ومن هذا يتبين أنهم أرسلوا إلى جميع العرب الذين كانوا قد ارتدوا، فما أصعب مهمة أبي بكر ومهمة قادة جنده الذين كلفوا بإخضاع المرتدين وإعادتهم إلى رحاب الإسلام، ولم يبق بالمدينة غير قوة صغيرة. وبقي أبو بكر في المدينة ولم يبعث عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والزبير مع كفايتهم الحربية بل أبقاهم معه لاستشارتهم.

وانطلقت البعوث إلى مواقعها فأبلت بلاء حسنا، فمنها من عرف الهزيمة، ومنها من لم يعرف الهزيمة مثل الجيش الذي كان يقوده خالد بن الوليد والذي علت مكانته العسكرية أكثر في هذه المعارك.

أخضع جيش طريفة بن جابر في سهولة هوازن، ثم انضم إلى جيش خالد الذي أخضع بدوره طليحة الأسدي، واستطاع هذا الجيش أن يُلجئ سجاح بنت الحارث إلى الفرار إلى شمال العراق ويخضع قبائلها، ويقتل من بين رجالها مالك بن نويرة، ثم سار بعد ذلك إلى أرض اليمامة، وكان زعيمها مسيلمة الكذاب استطاع أن يلحق الهزيمة بجيش عكرمة، لكن خالدا بعد إعادة تعبئة قواته وبعد استماتة طويلة استطاع أن ينتصر على المرتدين ويجبرهم على الفرار واعتصم مسيلمة بحديقة نخيل اشتهرت بحديقة الموت لكثرة القتلى فيها.

وبهذا الانتصار عاد قلب شبه الجزيرة العربية مرة أخرى إلى رحاب الدولة الإسلامية.

وكان عكرمة قد توجه بعد عجزه أمام مسيلمة إلى عمان للقضاء على المرتدين تاركا القيادة العليا في اليمامة لخالد، واستطاع أن يخضع عمان ويقتل زعيمها وقد ساعده في ذلك جيش حذيفة بن محصن، وانضم إلى الجيش بعد ذلك جيش عرفجة بن هرثمة، وتتابع الزحف إلى حضرموت واليمن حيث يوجد الأسود العنسي، وأمام تفاقم الأوضاع ثار المرتدون على زعيمهم الأسود وخضعوا للجبهة الإسلامية فصار جنوب بلاد العرب موقعا هاما من الدولة الإسلامية الناشئة.

وخلاصة المرام في تحقيق المقام: استطاعت التعبئة الإسلامية الجديدة أن تخمد جميع الحركات المرتدة بشكل حاسم قبل انتهاء عام 11 هجرية.

وترتب على انتصار المسلمين في وقائع الردة أن القبائل العربية النازلة بأطراف العراق والشام أخذت تتجه نحو الدولة الإسلامية الجديدة التي قامت في المدينة، وأخذت تخصها بإعجاب ولاسيما بعد أن قطعت الصلة بينها وبين الدولتين العظيمتين الفارسية والبزنطية، وبلغ الأمر ببعض القبائل أن طلبت من خليفة رسول الله ﷺ أن يعينها على غزو العراق والشام.

وبهذا خضعت جميع هذه القبائل للإسلام بفضل حزم أبي بكر الصديق ﷺ ومحاربته أهل الردة.

ولقد ولدت هذه الانتصارات في أعماق المسلمين علو الهمة واستصغار العظائم وعدم التهيب مما قد يسمى مستحيلا، وانضوى الناس تحت راية الإسلام، وعرف كل إنسان غايته في تحقيق حكم الله في أرضه لا يفتر له عزم ولا تلين له قناة.

لقد انتحب تاريخ الإسلام ونعى كثرة الشهداء في ساحات المعارك إذ لم يكونوا من النوع العادي، ولأنهم كانوا ضمن قاعدته الصلبة التي أقام عليها دعائمه وثبت بفضلها وجوده، ولقد كان ذلك في حقيقة الأمر ثمنا مقابلا للخبرة التي اكتسبها المسلمون جراء تلك الحروب فمكنتهم من أعدائهم ومهدت لهم النصر على الفرس والروم على حد سواء، ولم يكن شهداء الردة ثمنا لكسب حرب الردة فحسب، وإنما كانوا ثمنا لقمع الردة وللفتوح بعده، كانوا ضريبة لهذه الأمة، ولانسياح الإسلام شرقا وغربا.

جـ- الفتوحات الإسلامية في العراق والشام:

إن المقصد السامي للفتوحات الإسلامية التي قادها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق ﷺ نشر الإسلام بين الناس، وإزاحة الطواغيت الجاثمة على رقاب الناس، وكان الصديق ﷺ والمسلمون معه على يقين بما أخبر الله ورسوله من النصر والتمكين.

ولذلك لما انتهى خالد بن الوليد ﷺ من قتال المرتدين ومانعي الزكاة في الجزيرة العربية. وقضى على مسيلمة الكذاب، أمره خليفة رسول الله أبو بكر الصديق ﷺ بالتوجه إلى جبهة العراق، ليتولى قيادة المسلمين فيها، ويقوم بجهاد الفرس، وانضم إليه المثنى بن حارثة وجيشه، وخاض خالد وإخوانه المجاهدون معارك ظافرة ضد الفرس.

ويظهر للباحث فقه أبي بكر الصديق ﷺ في التخطيط الجهادي بأنه كان يرتكز على اتخاذ القرارات بتنظيم الجيوش وتوجيهها وتحديد واجباتها وأهدافها، وتنسيق التعاون فيما بينها، وتحقيق التوازن على مسارح العمليات، غير أنه يترك لقادته حرية العمل العسكري، لإدارة العمليات القتالية بالأساليب التي يرونها مناسبة، وبالطرائق التي تستجيب لما يجابهونه من مواقف.

ففتحوا الحيرة وكانت قلب العراق لمكانها الجغرافي والأدبي من العراق والمملكة الفارسية، وفتحوا الأنبار في موقعة ذات العيون، وفتحوا دومة الجندل ذات الموقع الاستراتيجي؛ لكونها تقع على ملتقى الطرق إلى ثلاث جهات فشبه الجزيرة العربية من الجنوب والعراق من الشمال الشرقي، والشام من الشمال الغربي.

أما الجبهة الشامية، حيث كان الجهاد ضد الروم، أقوى دولة في العالم في ذلك الزمان. فقد وجه الصديق أبو بكر ﷺ أربعة جيوش، بقيادة: أبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة ﷺ. ولحق بهم جيش خالد بن الوليد بعدما فرغ من العراق.

ووقعت معارك عديدة ضد الروم على الجهة الشامية، ثم كانت معركة اليرموك الفاصلة، التي توفي أبو بكر الصديق ﷺ أثناءها.

لقد كانت السياسة الخارجية لخليفة رسول الله ﷺ قائمة على بسط لواء العدل على الديار المفتوحة ونشر الأمن والطمأنينة بين أهلها حتى يحس الناس بالفرق بين دولة الحق ودولة الباطل، ووصى أبو بكر الصديق ﷺ قادة جنده بالرحمة والعدل بين الناس والإحسان إليهم، فإن المغلوب يحتاج إلى الرأفة، وتجنب ما يثير فيه حمية القتال، وحافظ المسلمون

الفاتحون على الإنسان والعمران فشاهدت الشعوب المفتوحة خلقاً جديداً في ذوق رفيع، وإنسانية صادقة، وأخلاق رفيعة، وآداب سامية، فقام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط، وانتشر نور الإسلام فأخذ يعد له مجامع القلوب، فسارعت الشعوب إلى اعتناق هذا الدين والانضواء تحت لوائه، وكان جند الأعاجم من الفرس أو الروم إذا وطئوا أرضا دنسوها، ونشروا فيها الرعب والفزع وانتهكوا الحرمات مما قاسى منه الناس الويل والثبور وتناقلت الأجيال قصصه المرعبة والمفزعة جيلاً بعد جيل وقبيلاً إثر قبيل، فلما جاء الإسلام ودخل جنده هذه الديار، فإذا بالناس يجدون العدل يبسط رداءه فوق رءوسهم ويعيد إليهم آدميتهم التي انتزعها الظلم والطغيان، وقد حرص الصديق ﷺ على هذه السياسة حرصا عظيما وكان يقوم أي عوج يظهر أو خطأ. ورفع الإكراه عن الأمم المفتوحة فلم يكره أحدا من الأمم أو الشعوب على دينه بالقوة.

د- جمع القرآن الكريم:

توفي سيدنا رسول الله ﷺ والقرآن الكريم لم يُجمع في مصحف واحد مكتوب، وإنما كان متفرقاً في صدور الصحابة والألواح ونحوها من وسائل الكتابة، حيث لم تكن ثمة دواع في حياته ﷺ استدعت جمع القرآن في مصحف واحد.

وبعد وفاته ﷺ أجمع المسلمون على اختيار أبي بكر الصديق ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ فقام بأمر الإسلام، وواجهته أحداث جسام، وارتد عن دين الإسلام جمهرة من العرب، فجهز ﷺ الجيوش لقتالهم وكانت معركة اليمامة في سنة 12 للهجرة، تضم عددا كبيرا من الصحابة القراء ﷺ، فاستشهد منهم في هذه المعركة سبعون قارئا، فهال ذلك الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، ودخل على خليفة رسول الله ﷺ وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية ضياعه بوفاة حفاظه، ولم يطمئن الصديق ﷺ لهذا الرأي خشية أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، لكن إلحاح عمر ﷺ على زيد بن ثابت ﷺ جعله يطمئن ويرى رأي عمر ﷺ، ثم اطمأن الصديق ﷺ لرأيهما، وأمر زيدا بجمع القرآن الكريم في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، وأن تكون كتابته كتابة غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم.

فبدأ زيد ﷺ بجمعه من الرقاع وجريد النخل ومن صدور الرجال حتى جمع المصحف كله بالأحرف السبعة، فكان المصحف عند أبي بكر ﷺ حتى توفاه الله، ثم عند عمر ﷺ حتى استشهد، ثم عند أم المؤمنين حفصة بن عمر -رضي الله عنهما- ثم طلبها عثمان ﷺ من حفصة فكانت عنده، ثم أرجعها إليها وبقي عندها حتى ماتت-رضي الله عنها.

ونختم بما رُوي عن علي ﷺ أنه قال: "رحمة الله على أبي بكر، كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف، وهو أول من جمع بين اللوحين"[1]، قال الإمام ابن حجر-رحمه الله-: «وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يُعدُّ في فضائله، ويُنوِّه بعظيم منقبته، لثبوت قوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[2]. ثم قال: فما جمع أحد بعده إلا كان له مثل أجره إلى يوم القيامة»[3].

هـ- وفاته:

- وصية الصديق ﷺ للفاروق ﷺ:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن ساباط قال: لما حضر أبا بكر الوفاة دعا عمر فقال: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وعملا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في دار الدنيا، وحق لميزان لا يكون له إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا.

وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف أن لا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار وذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء ليكون العبد راغبا راهبا لا

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، 9/ 12.
(2) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن في الإسلام سنة حسنة أو سيئة، ح1017.
(3) فتح الباري، 9/ 13.

يتمنى على الله ولا يقنط من رحمته. فإن أنت حفظت وصيتي فلا يك غائب أحب إليك من الموت ولست تعجزه»[1].

- وداعا أبا بكر:

قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: كان سببُ وفاة أبي بكر، هو وفاة رسول الله ﷺ، حيث حزن عليه، وما زال جسمه ينقصُ حتى مات.

وذكر الواقدي أنه اغتسل في يوم بارد فحم ومرض خمسة عشر يوما.

وروي أن اليهود دست له السم في الطعام فمات بعد سنة. فقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب. فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال إني أفعل ما أريد[2].

وهنا يمكن القول: أن اليهود كانوا مولعين بالاغتيالات، فتاريخهم مليء باغتيال أنبيائهم ورسلهم، وقد حاول يهود بني قينقاع اغتيال رسول الله ﷺكما أعادت المحاولة يهود بني النضير، بيد أن المحاولة التي نالت من حياة رسول الله ﷺ كانت من قبل اليهود بعد غزوة خيبر عام 7 هـ بقليل، عندما أمروا امرأة منهم يقال لها زينب بنت الحارث اليهودية جاءت لرسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل شيئاً من ذراعها فأحس بالسم ولفظ ما تناوله بسرعة، ومات منها أحد أصحاب رسول الله ﷺ وهو بشر بن البراء بن معرور الأنصاري رضي الله عنه[3]، ومع أن تلك الأكلة لم تودي بحياة رسول الله ﷺ في حينها لكن من المستيقن أنها كانت السبب في وفاته في السنة الحادية عشر للهجرة وذلك لقول رسول الله ﷺ: «مَا زِلْتُ أَجِدُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِى أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي[4]»[5]. فسيدنا رسول الله ﷺ مع ما أكرمه الله به من النبوة والرسالة فقد مات شهيدا.

---

(1) الرياض النضرة في مناقب العشرة، أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري، 1/ 259.

(2) تاريخ الطبري، 2/ 611.

(3) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، 2/ 106- 107،200 ، الإصابة في تميز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، 8/ 155.

(4) أبهري: عرقانِ في الصُلب إذا انقطع أحدُهما مات صاحبه.

(5) سنن أبي داود، كتاب الديات، باب فيمن سقى رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد منه ؟، ح4512. قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

فاليهود لم ينعموا باغتيال رسول الله ﷺ، إنما راحوا يقوضون أركان الدولة الإسلامية الناشئة باغتيال خليفتها الأول، وبالذات حينما شاهدوا ما قدمه خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ من جهود جبارة في مواجهة المرتدين حتى انقادت للإسلام جميع قبائل العرب، وتدعيم الدين الإسلامي والدولة الجديدة حتى ثبتت دعائمها، فذهبوا إلى دس الدسائس وتدبير المكائد -كما هي جبلتهم دائما-، فأطعموه طعاما مسموما أكل منه هو والحارث بن كَلدَة الثقفي فعمي الحارث وتوفي الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ بعد ذلك، وكان ذلك السم الذي دُسَّ له لا يقتل في حينه وإنما بعد مرور شهور[1].

وأوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس فغسلته، وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ، وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ودفن ليلا في بيت عائشة مع النبي ﷺ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ، وألصقوا لحده بلحده وجعل قبره مسطحا مثل قبر النبي ﷺ ورش عليه بالماء.

توفي ﷺ يوم الاثنين 22 جمادى الآخر سنة 13ه وفق 23 أب-أغسطس سنة 634م وله 63 سنة كرسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ. وكانت خلافته عامين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

ولما توفي أبو بكر ﷺ ارتجت المدينة بالبكاء، ودهش القوم كيوم قبض النبي ﷺ، فأقبل علي بن أبي طالب ﷺ مسرعا باكيا مسترجعا حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر وقد سجي بثوب فقال: "رحمك الله يا أبا بكر، كنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا، وأخوفهم لله عز وجل، وأعظمهم غناء، وأحدبهم على الإسلام، وآمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله ﷺ وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفعلا، وأشرفهم منزلة

(1) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، 4/ 90. مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، 2/ 310؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، 3/ 68؛ تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص76.

وأكرمهم عليه وأوثقهم عند الله، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله والمسلمين خيرا، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، فسماك الله في كتابه صديقا فقال: والذي جاء بالصدق –محمد– وصدق به –أبو بكر–، وآسيته حين بخلوا، وقمت معه حين عنه قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة ورفيقه في الهجرة ومواطن الكريهة، ثم خلفته في أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس وقمت بدين الله قياما لم يقم به خليفة نبي قط، قويت حين ضعف أصحابك، وبدرت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا ولزمت منهاج رسوله، إذ هم أصحابه كنت خليفته حقا لم تنازع ولم تضرع برغم المنافقين وصغر الفاسقين وغيظ الكافرين وكره الحاسدين، فقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا فاتبعوك فهدوا وكنت أخفضهم صوتا وأعلاهم فوقا وأقلهم كلاما وأصوبهم منطقا وأطولهم صمتا وأبلغهم قولا، وكنت أكبرهم رأيا وأشجعهم قلبا وأحسنهم عملا وأعرفهم بالأمور، كنت والله للدين يعسوبا أولا حين تفرق عنه الناس وآخرا حين أقبلوا ،كنت للمؤمنين أبا رحيما إذ صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما عنه ضعفوا وحفظت ما ضيعوا ورعيت ما أهملوا وشمرت إذ خنعوا وعلوت إذ هلعوا وصبرت إذ جزعوا فأدركت أوتار ما طلبوا ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت على الكافرين عذابا صبا وكنت للمسلمين غيثا وخصبا، فطرت والله بغنائها وفزت بحبابها وذهبت بفضائلها وأحرزت سوابقها، لم تفلل حجتك ولم يزغ قلبك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ولم تخن، كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ أمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكما قال ضعيفا في بدنك قويا في أمر الله تعالى متواضعا في نفسك عظيما عند الله جليلا في الأرض كبيرا عند المؤمنين، لم يكن لأحد فيك مهمز ولا لقائل فيك مغمز ولا لأحد فيك مطمع، ولا عندك هوادة لأحد، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء، شأنك الحق والصدق والرفق وقولك حكم وحتم ورأيك علم وعرف، فأقلعت وقد نهج السبيل وسهل العسير وأطفئت النيران واعتدل بك الدين وقوي الإيمان وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، فسبقت والله سبقا بعيدا وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا، وفزت بالحق فوزا

مبينا، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه وسلمنا لله أمره ولن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدا، كنت للدين عزا وكهفا، وللمؤمنين حصنا وفئة وأنسا، وعلى المنافقين غلظة وغيظا وكظما، فألحقك الله بميتة نبيك ﷺ ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأنصت الناس حتى قضى كلامه ثم بكى وبكوا وقالوا: صدقت يا ابن عم رسول الله ﷺ[1].

(1) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، ٣/ ١٥٩-١٦١. الرياض النضرة في مناقب العشرة، المحب الطبري، ١/ ١٨٣.

المحور الثالث

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ

أولا: نبذة موجزة من سيرته:

1- ولادته ونسبه:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرُط بن رَزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، بن غالب القرشي العدوي، يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب، ويكنى أبا حفص، ولقب بالفاروق، لأنه أظهر الإسلام بمكة ففرّق الله به بين الكفر والإيمان.

ولد عمر ﷺ بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة.

وأما صفته الخَلْقية: فكان ﷺ أبيض أمهق، تعلوه حمرة، حسن الخدين والأنف والعينين، غليظ القدمين والكفين، مجدول اللحم، وكان طويلاً جسيماً أصلع، قد فرع الناس، كأنه راكب على دابة، وكان قوياً شديداً، لا واهناً ولا ضعيفاً، وكان يخضب بالحناء، وكان طويل السَّبلة[1] وكان إذا مشى أسرع وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع.

أمضى عمر ﷺ في الجاهلية شطراً من حياته، ونشأ كأمثاله من أبناء قريش، وامتاز عليهم بتعلم القراءة وهؤلاء كانوا قليلين جداً، وقد حمل المسئولية صغيراً، ونشأ نشأة غليظة شديدة، لم يعرف فيها ألوان الترف، ولا مظاهر الثروة ودفعه أبوه الخطاب في غلظة وقسوة إلى المراعي يرعى إبله، وتركت هذه المعاملة القاسية من أبيه أثراً سيئاً في نفس عمر ﷺ، فظل يذكرها طيلة حياته.

ولا شك أن هذه الحرفة -الرعي- التي لازمت عمر بن الخطاب في مكة قبل أن يدخل الإسلام قد أكسبته صفات جميلة كقوة التحمل، والجلد وشدة البأس، ولم يكن رعي الغنم

(1) السبلة: طرف الشارب وكان إذا غضب أو حزنه أمر يمسك بها ويفتلها.

هو شغل ابن الخطاب قبل إسلامه فحسب، بل حذق من أول شبابه ألواناً من رياضة البدن، فحذق المصارعة، وركوب الخيل والفروسية، وتذوق الشعر...

وكان له اهتمام بتاريخ قومه وشئونهم، وحرص على الحضور في أسواق العرب الكبرى، كـ «عكاظ» و«مجنة» و«ذي المجاز» واستفاد منها في التجارة ومعرفة تاريخ العرب وما حدث بين القبائل من وقائع ومفاخرات ومنافرات حيث تعرض تلك الأحداث ضمن آثار أدبية يتناولها كبار الأدباء بالنقد على مرأى ومسمع من ملء القبائل وأعيانها، مما جعل التاريخ العربي عرضاً دائم الحركة لا ينسدل عليه ستار النسيان، وربما تطاير شرر الحوادث فكانت الحرب وكانت عكاظ - بالذات - سبباً مباشراً في حروب أربع سميت حروب الفِجار[1].

واشتغل عمر ﷺ بالتجارة وربح منها ما جعله من أغنياء مكة، وكسب معارف متعددة من البلاد التي زارها للتجارة، فرحل إلى الشام صيفاً وإلى اليمن شتاءً، واحتل مكانةً بارزة في المجتمع المكي الجاهلي، وأسهم بشكل فعَّال في أحداثه، وساعده تاريخ أجداده المجيد، فقد كان جده نفيل بن عبد العزى تحتكم إليه قريش في خصوماتها، فضلاً عن أن جده الأعلى كعب بن لؤي كان عظيم القدر والشأن عند العرب، فقد أرّخوا بسنة وفاته إلى عام الفيل، وتوارث عمر عن أجداده هذه المكانة المهمة التي أكسبته خبرة ودراية ومعرفة بأحوال العرب وحياتهم، فضلاً عن فطنته وذكائه، فكانت العرب تلجأ إليه في فض خصوماتها.

كان ﷺ، رجلاً حكيماً، بليغاً، حصيفاً، قوياً، حليماً، شريفاً، قوي الحجة، واضح البيان، مما أهله لأن يكون سفيراً لقريش، ومفاخراً ومنافراً لها مع القبائل[2].

2-إسلامه وبعض فضائله:

لقد عاش عمر في الجاهلية وسبر أغوارها، وعرف حقيقتها، وتقاليدها وأعرافها واستمات في الدفاع عنها، ولذلك لما دخل في الإسلام وعرف جماله وحقيقته ورأى ذلك البون

(1) الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، فاروق مجدلاوي، ص90 . الفاروق مع النبي ﷺ، عاطف لماضه، ص6، الطبقات الكبرى لابن سعد (3/ 293)، التاريخ الإسلامي العام، علي حسن إبراهيم ص226.

(2) عمر بن الخطاب، محمد أحمد أبو النصر ص17 . الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، العاني ص16 .

الواسع بين الهدى والضلال والكفر والإيمان والحق والباطل والثرى والثريا فدافع عن الحق وصدع به منذ يومه الأول، ودافع عن المستضعفين بمكة حتى قويت شوكة الإسلام.

كان أول شعاعة من نور الإيمان لامست قلبه، يوم رأى نساء قريش يتركن بلدهن ويرحلن إلى بلد بعيد عن بلدهن بسبب ما لقين منه ومن أمثاله، فرق قلبه، وعاتبه ضميره، فرثى لهن، وأسمعهن الكلمة الطيبة التي لم يكنّ يطمعن أن يسمعن منه مثلها.

قالت أم عبد الله بِنْت أَبِي حَثْمَةَ: وَاَللَّهِ إنّا لَنَتَرَحّلُ إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ عَامِرٌ فِي بَعْضِ حَاجَاتِنَا، إذْ أَقْبَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ حَتّى وَقَفَ عَلَيّ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، وَكُنّا نَلْقَى مِنْهُ الْبَلَاءَ أَذًى لَنَا وَشِدّةً عَلَيْنَا. فَقَالَ: إنّهُ لَلانْطِلَاقُ يَا أُمّ عَبْدِ اللّهِ؟ قَالَتْ فَقُلْت: نَعَمْ وَاَللّهِ لَنَخْرُجَنّ فِي أَرْضِ اللّهِ آذَيْتُمُونَا وَقَهَرْتُمُونَا، حَتّى يَجْعَلَ اللّهُ مَخْرَجًا. فَقَالَ: صَحِبَكُمْ اللّهُ. وَرَأَيْت لَهُ رِقّةً لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا، ثُمّ انْصَرَفَ وَقَدْ أَحْزَنَهُ خُرُوجُنَا. فَجَاءَ عَامِرٌ بِحَاجَتِهِ تِلْكَ، فَقُلْت لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللّهِ لَوْ رَأَيْتَ عُمَرَ آنِفًا وَرِقّتَهُ وَحُزْنَهُ عَلَيْنَا. قَالَ: أَطَمِعْت فِي إسْلَامِهِ؟ قَالَتْ قُلْت: نَعَمْ. قَالَ: فَلَا يُسْلِمُ الّذِي رَأَيْتِ حَتّى يُسْلِمَ حِمَارُ الْخَطّابِ. قَالَتْ يَأْسًا مِنْهُ لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ غِلْظَتِهِ وَقَسْوَتِهِ عَنْ الْإِسْلَامِ[1].

لقد تأثر عمر ﷺ من هذا الموقف وشعر أن صدره قد أصبح ضيقاً حرجاً؛ فأي بلاء يعانيه أتباع هذا الدين الجديد، وهم على الرغم من ذلك ثابتون ثبات الجبال الرواسي! ما سر تلك القوة الخارقة؟ وشعر بالحزن وعصر قلبه الألم.

وبعد هذه الحادثة بقليل أسلم عمر ﷺ بسبب دعوة رسول الله ﷺ: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر»[2].

وإذا أراد الله شيئا هيأ له الأسباب، ولذلك لما حان موعد إسلامه، داهم بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، لما سمع أنها أسلمت هي وزوجها، ووجد عندهم صحيفة فيها سورة

(1) سيرة ابن هشام، 1/ 342.

(2) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر ﷺ، ح3681. قال الألباني: صحيح.

طه، وبعد أخذ ورد وتدافع، قرأ ما في الصحيفة فإذا قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ [طه].

فعظمت في صدره. فقال: من هذا فرّت قريش؟ ثم قرأ. فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦﴾ [طه].

قال: ينبغي لمن يقول هذا أن لا يُعبد معه غيره دلوني على محمد.

فلما عرفوا منه الصدق قالوا: هو في أسفل الصفا. فأخذ عمر سيفه فتوشّحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته وَجِلوا ولم يجترئ أحد منهم أن يفتح له، لما قد علموا من شدته على رسول الله ﷺ، فلما رأى حمزة ﷺ وجَلَ القوم قال: مالكم؟ قالوا عمر بن الخطاب قال: عمر بن الخطاب؟ افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يُسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً، ففتحوا، وأخذ حمزة ورجل آخر بعضديه حتى أدخلاه على رسول الله ﷺ، فقال أرسلوه، ونهض إليه رسول الله ﷺ وأخذ بحجزته[1]، وبجمع ردائه ثم جبذه جَبْذَة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال له عمر: يا رسول الله جئتك أؤمن بالله وبرسوله وبما جئت به من عند الله، قال: فكبّر رسول الله ﷺ فعرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله، وينتصفون بهما من عدوهم[2].

أسلم عمر ﷺ في ذي الحجة من العام السادس من النبوة، وهو ابن سبع وعشرين عاما، وكان إسلامه بعد إسلام حمزة ﷺ بثلاثة أيام، وكان المسلمون يومئذ تسعة وثلاثين: قال عمر ﷺ: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلاً فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه، وأعز الإسلام.

(1) حجز الإنسان: معقد السراويل والإزار.

(2) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، 1/ 279. سيرة ابن هشام، 1/ 343.

وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط، فقد كان ثمة عبيد آمنوا، وكانوا في مهنة مالكي رقابهم، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه، ويكره على الخروج منه. وكان من المؤمنين من كان يؤمن، ويخفي إيمانه عن أهله: أبيه وأمه وأخيه فرارا من أن يفتتن بملام أو تعذيب؛ فقد كان أهل كل بيت فيه من دخل في الإسلام يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر، ثم ينتقل المرء من اللوم إلى التعذيب، وكان هناك إحدى عشرة امرأة مسلمة، ولكن عمر لم يكن يعرفهم كلهم فذكر أنه أكملهم أربعين.

وعندما أسلم عمر ﷺ كانت الكارثة على الشرك، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالإسلام واستعلانه بعد استخفائه، ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين، بعد أن كانوا فرادى متفرقين.

لهذا كان سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول:«ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه»[1].

ومن مواقف عمر الخالدة أنه لما أراد الهجرة إلى المدينة أبى إلا أن تكون علانية حيث تقلد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته[2]، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام، فصلى متمكناً، ثم وقف على الحلق واحدة، واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس[3]، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، أو يرمل زوجه فليلقني وراء هذا الوادي. فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم، وأرشدهم ومضى لوجهه.

(1) سيرة ابن هشام، 1/ 341. البداية والنهاية، 3/ 99.
(2) عنزته: عصاه.
(3) المعاطس: الأنوف.

وكان قدوم عمر بن الخطاب ﷺ إلى المدينة قبل مقدم النبي ﷺ إليها، وكان معه من لحق به من أهله وقومه.

وهكذا ظل عمر بن الخطاب ﷺ محبا نبيه، ناصرا لدينه، صادعا بالحق، منافحا عن المستضعفين، لا يلين ولا يستكين ولا يخشى في الله لومة لائم.

كان عمر ﷺ من أكثر الصحابة شجاعة وجرأة، فكثيراً ما كان يسأل رسول الله ﷺ عن التصرفات التي لم يدرك حكمها، كما كان ﷺ يبدي رأيه واجتهاده بكل صدق ووضوح ومن شدة فهمه واستيعابه لمقاصد القرآن الكريم نزل القرآن الكريم موافقاً لرأيه ﷺ في بعض المواقف، قال عمر ﷺ: وافقت الله تعالى في ثلاث، أو وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مُصلّى، فأنزل الله تعالى ذلك، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله تعالى آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض أزواجه، فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ? ما يعظ نساءه، حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ ...٥﴾ [التحريم][1].

وكان عمر ﷺ شديد الحرص على صحبة رسول الله ﷺ وملازمته، لا يترك مجلس رسول الله ﷺ حتى ينفض، فهو واحد من الجمع القليل الذي لم يترك رسول الله ﷺ، وكان يجلس في مجالس التربية والتعليم النبوي فيستوضح، ويستفهم، ويلقي الأسئلة بين يدي رسول الله ﷺ في الشئون الخاصة والعامة، ولذلك روى عن النبي ﷺ خمسمائة حديث وتسعة وثلاثين حديثاً، وفي رواية: خمسمائة وسبعة وثلاثين حديثاً، اتفق الشيخان في صحيحيهما على ستة وعشرين منها، وانفرد البخاري بأربعة وثلاثين ومسلم بواحد وعشرين، والبقية في كتب الأحاديث الأخرى، وقد وفقه الله إلى رواية أحاديث لها قيمتها الأولوية في مراتب الدين وحقيقة الإيمان والإسلام والإحسان والقضاء والقدر، وفي العلم والذكر والدعاء والعبادات والمعاملات والحدود و الزواج والطلاق والنسب والأخلاق والخلافة والقضاء وغيرها.

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، ح4213.

ومن فضائله ﷺ ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنه كان قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب»[1].

وقد تضمن منقبة عظيمة وفضيلة كبيرة لعمر ﷺ وقد اختلف العلماء في المراد بالمحدَّث. فقيل: المراد بالمحدث: الملهم. وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل: مكلم أي: تكلمه الملائكة بغير نبوة.. بمعنى أنها تكلمه في نفسه وإن لم ير مكلماً في الحقيقة فيرجع إلى الإلهام. وفسره بعضهم بالتفرس[2].

ومن فضائله أن جمع القرآن الكريم في عهد خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق ﷺ كان من اقتراح عمر ﷺ، بناء على المصلحة المرسلة ولا أدل على ذلك من قوله: "إنه والله خير ومصلحة للمسلمين".

ومن فضائله ما رواه الشيخان: عن أبي عثمان ﷺ: أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك ؟ قال: (عائشة). قلت: من الرجال؟ قال: (أبوها) . قلت: ثم من؟ قال: (عمر) . فعد رجالا فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم[3].

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك»[4]. وهذا يدل على استقامته ومراقبته لنفسه وعدم اتباعه الهوى وشدة تحكمه في ميولاته ونوازعه.

رضي الله عن عمر، فإن الشياطين تفر منه حيا وميتا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». وقال ابن عمر: «ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر»[5].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، ح3282.
(2) شرح النووي على صحيح مسلم، 15/ 166. فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، 12/ 376.
(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل، ح4100. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر ﷺ، ح2384.
(4) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، ح3480.
(5) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، ح3682. قال الألباني: صحيح.

وتعظم إشادة رسول الله ﷺ بعمر بن الخطاب ﷺ لتبلغ أقصى مداها في قوله الذي رواه عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»[1].

3- مقومات شخصيته الدينية:

لقد كان عمر ﷺ شخصية متميزة جمعت بين الشدة واللين وعدم الهوادة في الحق بالتزام شرع الله، ويعد ثاني شخصية إسلامية بعد أبي بكر الصديق ﷺ بإجماع المسلمين نظرا لتفاعله المتميز مع الإسلام، ولما تحقق على يديه من أعمال جليلة في كافة المستويات رغم تأخر إسلامه عن معظم كبار الصحابة ﷺ، ولقد كان أثيرا لدى رسول الله ﷺ يحبه حبا خاصا، ولقد اتخذه رسول الله ﷺ صهرا وقريبا وتزوج ابنته أم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها-، ولم يتخذ رسول الله ﷺ كثيرا من الصحابة أصهارا لكي يكون دائم الصلة به.

أما عن مفتاح شخصية الفاروق عمر ﷺ، فإن مفتاحها هو إيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته ﷺ، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، وسلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، فقد حقق شروط كلمة التوحيد، من العلم واليقين، والقبول، والانقياد، والإخلاص والمحبة... وكان على فهم صحيح لحقيقة الإيمان فظهرت آثار إيمانه، فكان شديد الخشية من الله تعالى، شديد المحاسبة لنفسه، وكان ﷺ يقول: أكثروا من ذكر النار، فإن حرّها شديد، وقعرها بعيد، ومقامها حديد.

عن عبد الرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر ﷺ، فكانت له ناقة يحلبها فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال ويحك تسقيني نارا! واستحل ذلك اللبن من بعض الناس. فقيل: هو لك حلال يا أمير المؤمنين ولحمها[2].

---

(1) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، ح3686. قال الألباني: حسن.
(2) تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة المنورة)، أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري، 2/ 703.

وهذا من ورع أمير المؤمنين عمر ﷺ، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة ﷺ الذي يمثلون المسلمين في ذلك الأمر.

لقد كان الفاروق عمر ﷺ شديد الورع، وقد بلغ به الورع فيما يحق له ولا يحق، أنه مرض يوماً، فوصفوا له العسل دواء، وكان في بيت المال عسل جاء من بعض البلاد المفتوحة، فلم يتداو عمر بالعسل كما نصحه الأطباء، حتى جمع الناس، وصعد المنبر واستأذن الناس: إن أذنتم لي، وإلا فهو علي حرام، فبكى الناس إشفاقاً عليه وأذنوا له جميعاً، ومضى بعضهم يقول لبعض، لله درك يا عمر! لقد أتعبت الخلفاء بعدك.

لقد كان الفاروق عمر ﷺ شديداً في محاسبة نفسه وأهله، فقد كان يعلم أن الأبصار مشرئبة نحوه وطامحة إليه، وأنه لا جدوى إن قسا على نفسه ورتع أهله فحوسب عنهم في الآخرة، ولم ترحمه ألسنة الخلائق في الدنيا فكان ﷺ إذا نهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: "إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العذاب، لمكانه مني، فمن شاء منكم أن يتقدم، ومن شاء منكم أن يتأخر".

ثانيا: الفاروق عمر ﷺ ثاني الخلفاء الراشدين:

1 - استخلاف أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ:

تقلد أمر الأمة وخلافة المسلمين بعد أبي بكر ﷺ صاحبه ورفيقه وظهيره ووزيره عمر بن الخطاب ﷺ بعهد أبي بكر إليه بذلك، واستخلافه إياه عليه نظرا للدين ونصيحة لله وللأمة، وذلك لما استعز بأبي بكر ﷺ وجعه وثقل أرسل إلى عثمان وعلي ورجال من أهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار ﷺ فقال: قد حضر ما ترون ولا بد من قائم بأمركم يجمع فئتكم ويمنع ظالمكم من الظلم ويرد على الضعيف حقه، فإن شئتم اخترتم لأنفسكم، وإن شئتم جعلتم ذلك إلي فوالله لا آلوكم ونفسي خيرا، قالوا: قد رضينا من اخترت لنا. قال: فقد اخترت عمر وقال لعثمان أكتب:

«هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها، حين يتوب الفاجر ويؤمن الكافر ويصدق الكاذب، عهد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن وعد الله حق وصدق المرسلون وأن محمدا رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى أنبيائه ورسله، وقد استخلفت» ولما انتهى أبو بكر إلى هذا الموضع ضعف ورهقته غشية فكتب عثمان وقد استخلف عمر بن الخطاب وأمسك. حتى أفاق أبو بكر فقال: أكتبت شيئا؟ قال: نعم كتبت عمر بن الخطاب. فقال: رحمك الله، أما لو كتبت نفسك لكنت لها أهلا فأكتب:

«قد استخلفت عمر بن الخطاب بعدي عليكم ورضيته لكم، فإن عدل فذلك ظني به ورأيي فيه وذلك أردت وما توفيقي إلا بالله، وإن بدل فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

والتوى عمر ﷺ على أبي بكر رحمه الله في قبول عهده وقال: لا أطيق القيام بأمر الناس. فقال أبو بكر لابنه عبد الرحمن: ارفعني وناولني السيف، فقال عمر: أو تعفيني؟ قال: لا. فعند ذلك قبل[1].

إن الصديق أبا بكر ﷺ تذكر ما حدث في اجتماع السقيفة وخشي على المسلمين إذا تركهم دون ولي من أن يفرط عقد الجماعة بصورة أخطر مما تمت عقب وفاة رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف حينئذ كان محصورًا بين المهاجرين والأنصار، ولكن المسلمين في عهده انتشروا يجاهدون في العراق والشام، ويواجهون فارس والروم.

فإذا استخلف وجمع كلمة المسلمين على من استخلفه فقد اتقى ما يخشى.

وبايع أهل الشورى أو ما يسمى في الفقه الإسلامي بأهل الحل والعقد، عمرا أميرا للمؤمنين، في اليوم الذي توفي فيه خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ، وابتدأت خلافته ﷺ يوم الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة.

(1) الاكتفاء، للكلاعي، 3/ 162.

أما إطلاق لقب أمير المؤمنين عليه فهذه قصته: لما مات أبو بكر الصديق ﷺ وكان يدعى خليفة رسول الله ﷺ فقال المسلمون: من جاء بعد أبي بكر قيل له: خليفة خليفة رسول الله ﷺ فيطول هذا، ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة، يُدْعى به من بعده من الخلفاء، فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعي عمر أمير المؤمنين فهو أول من سمي بذلك. وفي رواية: قال الفاروق عمر: «أنتم المؤمنون وأنا أميركم فسمي أمير المؤمنين»[1].

2- منهاجه في السياسة والحكم:

ولما تمت البيعة له، صعد المنبر، ونزل درجة عن الدرجة التي كان يقف عليها الصديق أبو بكر وخطب وقال: «ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر»، ثم خطب فقال:

«اللهم إني ضعيف فقويني، اللهم إني غليظ فليني، اللهم إني بخيل فسخِّنِي.

اقرؤوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم؛ إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف»[2].

وروي إن أول خطبة كانت قوله: «إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم بعد صاحبيّ، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن أهل الجزء -يعني الكفاية- والأمانة، والله لئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم، فقال من شهد خطبته ورواها عنه: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا»[3].

ومن خلال هذه الخطبة شخصية الفاروق ﷺ السياسية ومنهاجه في الحكم:

---

(1) تاريخ الطبري، 2/ 277. تاريخ المدينة، 2/ 677-678. الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 281.
(2) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي الهندي، 16/ 166-167.
(3) الطبقات الكبرى، لابن سعد، 3/ 275.

1- أنه ينظر إلى الخلافة على أنها ابتلاء ابتلي به سيحاسب على أداء حقه؛ فالحكم عند الراشدين تكليف وواجب وابتلاء، وليس جاهاً وشرفاً واستعلاء وتكبرا على خلق الله.

وكان الباعث على قبول مسئولية الخلافة ظنه أن يكون في مستواها قادرا عليها أكثر من غيره حرصا منه على أداء الأمانة على أحسن ما يرام، مشيرا إلى وعيه بحقيقتها وأنها أعظم حق وأضخم واجب.

2- إقراره بالضعف وعدم القدرة على تحمل المسئولية شعورا منه بحجم أمانة الحكم الثقيلة وإدارة الشئون السياسية والإدارية المتعلقة به رغم هذا الضعف الذي اعترف به في مستهل خلافته -تواضعا منه- فقد أبدى قوة قل نظيرها في الحكم والسياسة على مر العصور بإدارة كافة الشئون بحنكة وحكمة فائقة وعبقرية نادرة حتى أصبح حكمه حديث الركبان ومضرب الأمثال في العدل والزهد والاستقامة والصلاح.

3- التزامه بعدم التبدل والتغير تجاه الأمة، بالثبات على الأخلاق التي كان عليها والسلوك الذي عرف عند الناس به، إدراكا منه أن الدنيا تفسد الأحوال وتتسبب في الانحراف عن الجادة في معظم الأحيان إلا من كان قوي الشكيمة فولاذي العزيمة محاسبا لنفسه قامعا لشهواته مؤمنا بلقاء ربه.

4- التزامه بإعطاء الحرية والحق للأمة بأن يكون عرضة للنقد والمحاسبة من قبلها في كافة الشئون المسئول عنها.

5- تركيزه في النصح للمسلمين على تحري التقوى في السر والعلانية، وهي من أعظم الصفات والقيم التي تكفل الصلاح والاستقامة في الأمور وهي صفة تتحقق بخشية الله والتزام الحق الذي أنزله على خاتم أنبيائه وتاج أصفيائه سيدنا محمد ﷺ.

6- حثه الرعية على تعاطي الحق فيما بينهم ولو على أنفسهم لا تأخذهم في الله لومة لائم حرصا على الحفاظ على الصالح العام ومساهمة في تحقيق العدل والعدالة، وإقراره بالالتزام بذلك دون هوادة أو مداهنة أو تساهل حرصا منه على صلاح الأمة، واستقامة أمرها.

7- وهذا الاستخلاف يتطلب منه أن يباشر حمل أعباء الدولة فيما حضره من أمرها، وأن يولي على الرعية التي غابت عنه أفضل الأمراء والعمال وأكفأهم، وأن يراقبهم في كل صغيرة وكبيرة، فمن أحسن منهم زاده إحساناً، ومن أساء عاقبه ونكّل به.

8- إن شدة عمر ﷺ التي هابها الناس سيخلصها لهم ليناً ورحمة، وسينصب لهم ميزان العدل، فمن ظلم وتعدى فلن يجد إلا التنكيل والهوان "ولست أدع أحداً يظلم أحدا ويتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض..." أما من آثر القصد والدين والعفاف فسيجد من الرحمة ما لا مزيد عليه؛ "أضع خدي لأهل العفاف"، وسيتّضح عدل عمر ﷺ في رعيته من خلال المواقف واهتمامه بمؤسسة القضاء وتطويرها بحيث سيطر العدل على كل ولايات الدولة.

9- وتكفل الخليفة بالدفاع عن الأمة ودينها وأن يسد الثغور ويدفع الخطر، غير أن ذلك لن يتم بظلم المقاتلين، فلن يحبسهم في الثغور إلى حد لا يطيقونه، وإن غابوا في الجيوش فسيرعى الخليفة ﷺ وجهازه الإداري أبناءهم وأسرهم، ولقد قام الفاروق بتطوير المؤسسة العسكرية وأصبحت قوة ضاربة لا مثيل لها على مستوى العالم في عصره.

- وتعهد الخليفة ﷺ بأداء الحقوق المالية للرعية كاملة ... من خراج وفيء، لا يحتجن منه شيئاً ولا يضعه في غير محله، بل سيزيد عطاياهم وأرزاقهم باستمرار الجهاد والغزو والحض على العمل وضبط الأداء المالي للدولة، وقد قام بتطوير المؤسسة المالية، وضبط مصادر بيت المال وأوجه الإنفاق في الدولة.

10- وفي مقابل ذلك يطالب الرعية بأداء واجبها من النصح لخليفتها والسمع والطاعة له والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يشيع الرقابة الإسلامية في المجتمع.

11- ونبه إلى أنه لا يعين على ذلك إلا بتقوى الله ومحاسبة النفس واستشعار المسؤولية في الآخرة[1].

---

(1) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين حمدي شاهين، ص121.

12- أخذه بمبدأ الشورى في الحكم: وذلك في قوله: «لا خير في أمر أبرم من غير شورى»، وقوله: «الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض»، وقوله: «شاور في أمرك من يخاف الله عز وجل»[1].

3- الحقوق والحريات في العهد العمري:

1- **رد سبايا العرب**: كان أول قرار اتخذه الفاروق عمر ﷺ في دولته رد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم حيث قال: «كرهت أن يكون السبي سنة في العرب»، وهذه الخطوة الجريئة أسهمت في شعور العرب جميعاً أنهم أمام شريعة الله سواء، وأنه لا فضل لقبيلة على قبيلة إلا بحسن بلائها وما تقدمه من خدمات للإسلام والمسلمين، وتلت تلك الخطوة خطوة أخرى هي السماح لمن ظهرت توبتهم من أهل الردة بالاشتراك في الحروب ضد أعداء الإسلام، وقد أثبتوا شجاعة في الحرب وصبراً عند اللقاء، ووفاءً للدولة لا يعدله وفاء[2].

2- **العدل والمساواة**: إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تسهم في إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد العدل والمساواة، ففي خطاب الفاروق ﷺ للأمة أقر هذه المبادئ، فعدالته ومساواته تظهر في نص خطابه الذي ألقاه على الأمة يوم توليه منصب الخلافة؛ ولا شك أن العدل في فكر الفاروق ﷺ هو عدل الإسلام الذي هو الدعامة الرئيسة في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل.

إن إقامة العدل بين الناس أفراداً وجماعات ودولاً ليست من الأمور التطوعية التي تترك لمزاج الحاكم أو الأمير وهواه، بل إن إقامة العدل بين الناس في الدين الإسلامي تعد من أقدس الواجبات وأهمها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[3].

وإن الفاروق ﷺ فقد فتح الأبواب على مصراعيها في خطبته الأولى لرعيته لتصل إلى حقوقها وتدافع عنها إن هي حرمت منها، بل وتفقد بنفسه أحوالها، فمنعها من الظلم

(1) الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، ص246. سراج الملوك، أبو بكر الطرطوشي، ص132.
(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، محمد السيد الوكيل، ص89.
(3) فقه التمكين في القرآن الكريم، علي الصلابي، ص455.

المتوقع عليها، وأقام العدل بين الولاة والعمال والرعية، في أبهى صورة عرفها التاريخ فقد كان يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق ولا يهمه أن يكون المحكوم عليهم من الأقرباء أو الأعداء، أو الأغنياء أو الفقراء، أو الولاة أو الرعية.

لقد كان الفاروق ﷺ قدوة في عدله أسر القلوب وبهر العقول، فالعدل في نظره دعوة عملية للإسلام، به تفتح قلوب الناس للإيمان، وقد سار على منهاج رسول الله ﷺ، فكانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير لا تكاد تصدقه العقول حتى اقترن اسمه بالعدل وبات من الصعب جداً على كل من عرف شيئاً يسيراً من سيرته أن يفصل ما بين الاثنين.

لقد قامت دولة الخلفاء الراشدين على مبدأ العدل وما أجمل ما قاله الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية -رحمه الله- في الفتاوى: "إن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، وإن الله تعالى ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"اهـ.

وأما مبدأ المساواة الذي اعتمده الفاروق في دولته، فيعد أحد المبادئ العامة التي أقرها الإسلام قال الحق جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات].

إن الناس جميعاً في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفروق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة، والحكام والمحكومون كلهم في نظر الشرع سواء[1]. وجاءت ممارسة الفاروق عمر ﷺ لهذا المبدأ خير شاهد وهذه بعض المواقف التي جسدت مبدأ المساواة في دولته:

لم يأكل الفاروق عمر ﷺ من الطعام ما لا يتيسر لجميع المسلمين، فقد كان يصوم الدهر، فكان زمن الرمادة إذا أمسى أتى بخبز قد ثُرد بالزيت، إلى أن نحروا يوماً من

(1) فقه التمكين في القرآن الكريم، علي الصلابي، ص501.

الأيام جزوراً، فأطعمها الناس وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا قديد من سنام ومن كبد، فقال: أنى هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرناها اليوم. فقال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها، وأطعمت الناس كرادسها، ارفع هذه الجفنة، هات غير هذا الطعام، فأتي بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز[1]. ولم يكن عمر ليطبق مبدأ المساواة في المدينة وحدها، من غير أن يعلمه لعماله في الأقاليم، حتى في مسائل الطعام والشراب.

انتشرت الفتوحات الإسلامية، وتوالت انتصارات المسلمين على الروم، أخذت القبائل العربية في الشام تعلن إسلامها، وبدا للأمير الغساني أن يدخل الإسلام هو أيضاً، فأسلم وأسلم ذووه معه. وكتب إلى الفاروق يستأذنه في القدوم إلى المدينة، ففرح عمر بإسلامه وقدومه، فجاء إلى المدينة وأقام بها زمنا والفاروق يرعاه ويرحب به، ثم بدا له أن يخرج إلى الحج، وفي أثناء طوافه بالبيت الحرام وطئ إزاره رجل من بني فزارة فحله، وغضب الأمير الغساني لذلك -وهو حديث عهد بالإسلام- فلطم لطمة قاسية هشمت أنفه، وأسرع الفزاري إلى أمير المؤمنين يشكو إليه ما حل به وأرسل الفاروق إلى جبلة يدعوه إليه، ثم سأله فأقر بما حدث فقال له عمر: ماذا دعاك يا جبلة لأن تظلم أخاك هذا فتهشم أنفه؟

فأجاب بأنه قد ترفق كثيراً بهذا البدوي (وأنه لولا حرمة البيت الحرام لأخذت الذي فيه عيناه).

فقال له عمر : لقد أقررت، فأما أن ترضي الرجل وإما أن أقتص له منك.

وزادت دهشة جبلة بن الأيهم لكل هذا الذي يجري وقال: وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك؟

فقال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما.

فقال الأمير الغساني: لقد ظننت يا أمير المؤمنين أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية.

---

(1) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 312.

فقال الفاروق: دع عنك هذا فإنك إن لم ترضِ الرجل اقتصصت له منك.

فقال جبلة: إذا أتنصر.

فقال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك، لأنك أسلمت فإن ارتددت قتلتك.

وهنا أدرك جبلة أن الجدال لا فائدة منه، وأن المراوغة مع الفاروق ﷺ لن تجدي، فطلب من الفاروق أن يمهله ليفكر في الأمر، فأذن له عمر بالانصراف، وفكر جبلة بن الأيهم ووصل إلى قرار، وكان غير موفق في قراره، فقد آثر أن يغادر مكة هو وقومه في جنح الظلام وفر إلى القسطنطينية، فوصل إليها متنصراً، وندم بعد ذلك على هذا القرار أشد الندم، وصاغ ذلك في شعر جميل ما زال التاريخ يردده ويرويه[1].

وفي هذه القصة نرى حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ على مبدأ المساواة أمام الشرع، فالإسلام قد سوى بين الحاكم والمحكوم والعامة والخاصة، ولا بد لهذه المساواة أن تكون واقعاً حياً وليس مجرد حبر على ورق، أو كلمات تلوكها الألسن.

لقد طبق عمر ﷺ مبدأ المساواة الذي جاءت به شريعة الإسلام وجعله واقعاً حياً يعيش ويتحرك بين الناس، فلم يتراجع أمام عاطفة الأبوة، ولم ينثنِ أمام ألقاب النبالة، ولا تضيع أمام اختلاف الدين أو مجاملة الرجال الفاتحين، لقد كان ذلك المبدأ العظيم واقعاً حياً، شعر به كل حاكم ومحكوم، ووجده كل مقهور وكل مظلوم[2].

لقد كان لتطبيق مبدأ المساواة أثره في المجتمع الراشدي فقد أثر الشعور بها على نفوس ذلك الجيل فنبذوا العصبية التقليدية أم الفتن، وأزالت الفروق الحسبية الجاهلية، ولم يطمع شريف في وضيع، ولم ييأس ضعيف من أخذ حقه، فالكل سواء في الحقوق والواجبات، لقد كان مبدأ المساواة في المجتمع الراشدي نوراً جديداً أضاء به الإسلام جنبات المجتمع الإسلامي وكان لهذا المبدأ الأثر القوي في إنشائه.

---

(1) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، 8/ 70.

(2) فن الحكم في الإسلام، مصطفى أبو زيد، ص476 وما بعدها.

3- الحرية:

إن الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في عهد الخلافة الراشدة، ويقضي هذا المبدأ بتأمين الحريات العامة للناس كافة وكفالتها ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد كانت دعوة الإسلام لحرية الناس جميعا، دعوة واسعة وعريضة قلما تشتمل على مثلها دعوة في التاريخ، وكانت أول دعوة أطلقها في هذا المجال هي دعوته الناس في العديد من الآيات القرآنية لتوحيد الله والتوجه له بالعبادة وحده دون سائر الكائنات والمخلوقات، وفي دعوة التوحيد هذه كل معاني الحرية والاستقلال لبني الإنسان، أضف إلى ذلك أنّ الإسلام عرف الحرية بكل معانيها ومدلولاتها ومفاهيمها، فتارة تكون فعلاً إيجابياً كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتارة فعلاً سلبياً كالامتناع عن إكراه أحد في الدخول في الدين، وفي أحيان كثيرة يختلط معناها بمعنى الرحمة، والعدل والشورى والمساواة لأن كل مبدأ من هذه المبادئ التي نادى بها الإسلام لا يستقيم أمره ولا يمكن تحقيقه إلا بوجود الحرية، وقد أسهم مبدأ الحرية مساهمة فعالة إبان حكم الخلفاء الراشدين خاصة بانتشار الدين الإسلامي، وبتسهيل فتوحات المسلمين واتساع رقعة دولتهم لأن الإسلام كرم الإنسان وكفل حرياته على أوسع نطاق، ولأن النظم السياسية الأخرى السائدة آنذاك في دولة الروم والفرس كانت أنظمة استبدادية وتسلطية وفئوية قاسى بسببها الرعايا -وبصورة خاصة المناوئون السياسيون والأقليات الدينية- أشد درجات الكبت والاضطهاد والظلم.

ولقد سلك أمير المؤمنين عمر ﷺ منهاج رسول الله ﷺ وخليفته الصديق ﷺ من بعده إقرار مبدأ الحرية على شكل الآتي:

أ- الحرية الدينية:

حيث: أقرّ عمر ﷺ أهل الكتاب على دينهم؛ وأخذ منهم الجزية وعقد معهم المعاهدات، وخططت معابدهم ولم تهدم وتركت على حالها.

فحركة الفتوحات في عهد الفاروق ﷺ التي قام بها الصحابة تشهد على احترام الإسلام للملل الأخرى، وحرص القيادة العليا على عدم إكراه أحد في الدخول في الإسلام، حتى

إن الفاروق نفسه جاءته ذات يوم امرأة نصرانية عجوز كانت لها حاجة عنده فقال لها: أسلمي تسلمي؛ إن الله بعث محمداً بالحق، فقالت: أنا عجوز كبيرة، والموت إليَّ أقرب، فقضى حاجتها، ولكنه خشي أن يكون في مسلكه هذا ما ينطوي على استغلال حاجتها لمحاولة إكراهها على الإسلام، فاستغفر الله مما فعل وقال: اللهم إني أرشدت ولم أكره.

وكان لعمر ﷺ عبد نصراني اسمه (أشق) حدّث فقال: كنت عبداً نصرانياً لعمر، فقال: أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين، لأنه لا ينبغي لنا أن نستعين على أمورهم بمن ليس منهم، فأبيت فقال: ﴿لا إكراه في الدين﴾. فلما حضرته الوفاة أعتقني وقال: اذهب حيث شئت.

وقد كان أهل الكتاب يمارسون شعائر دينهم وطقوس عبادتهم في معابدهم وبيوتهم، ولم يمنعهم أحد من ذلك لأن الشريعة الإسلامية حفظت لهم حق الحرية في الاعتقاد.

وقد ثبت عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه كان شديد التسامح مع أهل الذمة، حيث كان يعفيهم من الجزية عندما يعجزون عن تسديدها.

ب- حرية التنقل أو حرية الغدو والرواح:

حرص الفاروق ﷺ على هذه الحرية حرصاً شديداً ولكنه قيدها في بعض الحالات الاستثنائية التي استدعت ضرورة لذلك، أما الحالات الاستثنائية التي جرى فيها تقييد حرية التنقل أو حرية المأوى فهي قليلة جداً، ويكفينا أن نشير إلى الحالتين نظراً لأهميتها:

الحالة الأولى: أمسك عمر كبار الصحابة في المدينة ومنعهم من الذهاب إلى الأقطار المفتوحة إلا بإذن منه أو لمهمة رسمية ؛كتعيين بعضهم ولاة أو قادة للجيوش، وذلك حتى يتمكن من أخذ مشورتهم والرجوع إليهم في مسائل الحكم ومشكلات الناس.

وأما الحالة الثانية فقد حصلت عندما أمر عمر بإجلاء نصارى نجران ويهود خيبر من قلب البلاد العربية إلى العراق والشام وسبب ذلك أن يهود خيبر ونصارى نجران لم يلتزموا بالعهود والشروط التي أبرموها مع رسول الله ﷺ وجددوها مع خليفته الصديق ﷺ، فقد

كانت مقرات يهود خيبر ونصارى نجران أوكاراً للدسائس والمكر والمؤامرات فكان لا بد من إزالة تلك القلاع الشيطانية، وإضعاف قواتهم، أما بقية النصارى واليهود، كأفراد فقد عاشوا في المجتمع المدني يتمتعون بكافة حقوقهم.

جـ- حرية الملكية:

وأما حرية الملكية فقد كانت مكفولة ومصانة في الخلافة الراشدة ضمن أبعد الحدود التي تقرها الشريعة الإسلامية في هذا المجال فحين اضطر عمر ﷺ لإجلاء نصارى نجران ويهود خيبر من قلب شبه الجزيرة العربية -لما نقضوا العهود والمواثيق- إلى العراق والشام، أمر بإعطائهم أرضاً كأرضهم في الأماكن التي انتقلوا إليها احتراماً منه وإقراراً لحق الملكية الفردية الذي يكفله الإسلام لأهل الذمة مثلما يكفله للمسلمين.

وعندما اضطر ﷺ إلى نزع ملكية بعض الدور من أجل العمل على توسيع المسجد الحرام في مكة، ولم يكن دفعه للتعويض العادل إلا اعترافاً منه وإقراراً بحق الملكية الفردية التي لا يجوز مصادرتها حتى في حالة الضرورة إلا بعد إنصاف أصحابها، وحرية الملكية لم تكن في عهد الراشدين مطلقة وإنما هي مقيدة بالحدود الشرعية وبمراعاة المصلحة العامة.

د- حرية الرأي والتعبير:

كفل الإسلام للفرد حرية الرأي كفالة تامة، وقد كانت هذه الحرية مؤمنة ومصانة في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ، فكان عمر ﷺ يترك الناس يبدون آراءهم السديدة ولا يقيدهم ولا يمنعهم من الإفصاح عما تكنه صدورهم، ويترك لهم فرصة الاجتهاد في المسائل التي لا نص فيها. ولم يحملهم على رأي معين.

وكان النقد أو النصح للحاكم في عهد الفاروق والخلفاء الراشدين ﷺ مفتوحاً على مصراعيه، فقد قام الفاروق ﷺ يخطب فقال: "أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه، فقام له رجل وقال: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه"، وقد جاء في خطبة

عمر لما تولى الخلافة: "أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة" [1]، واعتبر الفاروق ﷺ ممارسة الحرية السياسية البناءة (النصيحة) واجباً على الرعية ومن حق الحاكم أن يطالب بها: «أيها الرعية إن لنا عليكم حقاً: النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير»[2]، وكان يرى أن من حق أي فرد في الأمة أن يراقبه ويقوم اعوجاجه ولو بحد السيف إن هو حاد عن الطريق، فقال: أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه، وكان يقول: «أحب الناس إليّ من رفع إليّ عيوبي» [3].

إن الحرية في الإسلام إشعاع داخلي ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله تعالى، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات والمسارعة في الخيرات ابتغاء رب الأرض والسماوات، فالحرية في المجتمع الإسلامي دعامة من دعائمه تحققت في الخلافة الراشدة في أبهى صورها وانعكست أنوارها على صفحات التاريخ.

4) من أوليات الفاروق ﷺ:

أ-رأي عمر في الزواج بالكتابيات:

لما علم الفاروق عمر ﷺ أن حذيفة بن اليمان ﷺ تزوج يهودية كتب إليه: خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن[4].

هو رأي سبق إليه عمر بن الخطاب ﷺ: إذ هو أول من منع الزواج بالكتابيات مستنداً في ذلك إلى حجتين:

أ - لأنه يؤدي إلى كساد الفتيات المسلمات وتعنيسهن.

---

(1) كنز العمال، 5/ 683.
(2) تاريخ الطبري، 3/ 290.
(3) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 293.
(4) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، 1/ 583.

ب – لأن الكتابية تفسد أخلاق الأولاد المسلمين ودينهم وهما حجتان كافيتان في هذا المنع، إلا أنه إذا نظرنا إلى عصرنا فإننا سنجد مفاسد أخرى كثيرة استجدت تجعل هذا المنع أشد، ومن هذه المفاسد منها:

– قد تكون للزوجة من أهل الكتاب مهمة التجسس على المسلمين.

– دخول عادات الكفار إلى بلاد المسلمين.

– جهل المسلمين المتزوجين بالكتابيات مما يجعلهم عجينة سهلة التشكيل في يد الكتابيات.

وهي مفاسد كافية للاستدلال على حرمة الزواج بالكتابية في عصرنا.

إن القيود التي وضعها عمر على الزواج بالكتابيات تنسجم مع المصالح الكبرى للدولة والأهداف العظمى للمجتمعات الإسلامية، فقد عرفت الأمم الواعية ما في زواج أبنائها بالأجنبيات من المضار، وما يجلبه هذا الزواج من أخطار تعيب الوطن عفواً أو قصداً، فوضعت لذلك قيوداً وبالذات للذين يمثلونها في المجالات العامة، وهو احتياط له مبرراته الوجيهة، فالزوجة تعرف الكثير من أسرار زوجها إن لم تكن تعرفها كلها، على قدر ما بينهم من مودة وانسجام، ولقد كان لهذه الناحية من اهتمام عمر ﷺ مقام الأستاذية الحازمة الحاسبة لكل من جاء بعده كحاكم على مر الزمان، إن الزواج من الكتابيات فيه مفاسد عظيمة، فإنهن دخيلات علينا ويخالفننا في كل شيء، وأكثرهن يبقين على دينهن، فلا يتذوقن حلاوة الإسلام وما فيه من وفاء وتقدير للزوج، قدر عمر ﷺكل ذلك بفهمه لدينه، وبصائب تقديره، لطبائع البشر، وبحسن معرفته لما ينفع المسلمين وما يضرهم، فأصدر فيه أوامره وعلى الفور وفي حسم[1].

ب- جمع الناس على صلاة التراويح:

يعتبر الفاروق عمر ﷺ أول من جمع الناس على صلاة التراويح، وكتب بذلك إلى البلدان؛ وسبب ذلك ما رواه الإمام البخاري عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري قال:

(1) شهيد المحراب، عمر التلمساني، ص214.

"خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر: نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون. يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله".

جـ- إلزام التجار بمعرفة الحلال والحرام في البيوع:

كان الفاروق عمر ﷺ يضرب بالدرة من يقعد في السوق وهو لا يعرف الأحكام، ويقول: "لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا"، وكان يطوف بالأسواق ويضرب بعض التجار بدرته ويقول:"لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه، وإلا أكل الربا شاء أو كره".

د- فرضه لكل مولود في الإسلام:

روى الإمام ابن الجوزي-رحمه الله- في صفة الصفوة عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن: هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك؟ ثم عاد إلى مكانه فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال لها: ويحك ما لي أرى ابنك لا يقر منذ ليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة إني أريغه عن الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهراً، قال: ويحك لا تعجليه فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء فلما سلم قال: يا بؤسا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرض لكل مولود في الإسلام".

5) إصلاحاته الاقتصادية والمالية:

أ-مصادر الثروة في الخلافة العمرية ومصارفها:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿...وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ... ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة] وإيتاء المال اعتراف من المسلم -ابتداء- بأن المال الذي في يده هو رزق الله له لأنه خلقه هو، ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق انبثق البر بعباد الله، وعلى هذا الأساس الإيماني نظر الفاروق عمر ﷺ إلى مال الدولة التي توسعت مواردها في عصره، حيث فتحت الدولة بلداناً واسعة، وخضعت لحكمها شعوبا كثيرة، فنظم علاقة الدولة مع هذه الشعوب، فمنهم من دخل في حكم الدولة صلحاً، ومنهم من دخل في حكمها كرهاً، وتبعاً للفتح آلت إليها أرض غلبت عليها عنوة، وأراضٍ صالح أصحابها، وأرضٌ جلا عنها مالكوها أو كانت ملكاً لحكام البلاد السابقين ورجالهم، ومن شعوب هذه البلاد كتابيون (اليهود والنصارى) نظم الفاروق ﷺ طريقة التعامل معهم وفق شرع الله المحكم.

وقام ﷺ بتطوير النظام المالي في دولته سواء في الموارد أم الإنفاقات أم ترتيب حقوق الناس من خلال نظام الدواوين، وقد أخذت موارد الدولة تزداد في خلافته، وشرع في تطويرها، ورتب لها عمالاً للإشراف عليها فكانت أهم مصادر الثروة في عهده: الزكاة، والغنائم، والفيء، والجزية، والخراج، وعشر التجار، فعمل الفاروق ﷺ على تطوير هذه المصادر واجتهد في قضايا وفق مقاصد الشريعة التي وضعت لمصالح العباد، فقد أخذت الدولة تستجد فيها ظروف لم تكن موجودة في عهد رسول الله ﷺ، وكان عمر ﷺ مطبقا للكتاب والسنة تطبيقا عبقرياً، لا يستأثر بالأمر دون المسلمين، ولا يستبد بالرأي في شأن من الشئون، فإذا نزل به أمر جمع المسلمين يستشيرهم ويعمل بآرائهم، وأما أهم مصادر الثروة في الخلافة العمرية فهي الآتي:

1- **الزكاة:** سار الفاروق على منهاج رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر الصديق ﷺ، فقام بتنظيم مؤسسة الزكاة، وتطويرها، فأرسل المصدّقين لجمع الزكاة في أرجاء الدولة الإسلامية بعد أن أسلم الكثير من سكان البلاد المفتوحة، وكان العدل في جباية الأموال، صفة الخلافة الراشدة دون الإخلال بحقوق بيت المال.

أما مصارف الزكاة: فقد ذكر الله جل وعلا ثمانية أصناف ممن تجب لهم الزكاة في قوله جل في علاه: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة].

وقد كان الفقراء والمساكين في عهد عمر ﷺ يعطون من هذه الأموال ما يبعدهم عن المسكنة والفقر، ويخرجهم من الفاقة والعوز، ويقربهم إلى أدنى مراتب الغنى واليسار، وكان عمر ﷺ يقول: "إذا أعطيتم فأغنوا"[1]، وهذه هي السياسة العمرية الراشدة وهي إعطاء ما يكفي وزيادة النسبة للعجز المؤقت، وتتعدى هذه السياسة العمرية المسلمين فتشمل مساكين أهل الكتاب بعد إسقاط الجزية عنهم، كما أن من نفقات الزكاة العاملين عليها فهم لهم وظائف شتى، وأعمال متشعبة، كلها تتصل بتنظيم الزكاة، وبإحصاء من تجب عليه؟ وفيم تجب؟ ... إلى غير ذلك من الشئون التي تحتاج إلى جهاز كامل من الخبراء وأهل الاختصاص ومن يعاونهم، وأما المؤلفة قلوبهم، فقد أسقط عمر ﷺ سهمهم، وذلك لأن الإسلام كان قوي الجانب في خلافته فلا حاجة للإنفاق من أموال الزكاة على هذا الصنف من الأصناف الثمانية التي نصت عليها الآية.

وقد وافق الصحابة ﷺ على قرار الفاروق ﷺ، ولم تأت هذه الموافقة اعتباطاً وإنما نتيجة الاقتناع بالمبررات التي دفع بها لإيقاف إعطاء المؤلفة قلوبهم من حيث إن الإسلام قد غدا في قوة ومكنة تجعلانه في غنى عن عدد قليل لا وزن له، بعد دخول أمم كثيرة في الإسلام، كما أنه ليس ثمة خوف من هؤلاء الذين يطلبون التأليف، بل كان الخوف عليهم أن يظلوا على نزعتهم التواكلية، ثم إن حق هؤلاء ليس حقاً موروثاً يتوارثونه جيلاً بعد جيل.

إن عمر ﷺ لم يقف جامداً أمام هذا النص فيما يتصل بسهم المؤلفة قلوبهم، فهو قد فهم أن المقصود من النص هو إعزاز الإسلام بدخول أشراف العرب فيه، وتثبيت من أسلم منهم على الإسلام، فقد نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره، وحيث أعز الله الإسلام وكثر أهله فقد أصبح الإعطاء حينئذ -في نظر عمر- ذلة وخنوعاً، وزالت العلة التي من أجلها

(1) سن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، 7/ 23.

جعل الله للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة وبناء على ذلك أوقف عمر هذا السهم ولم يعطه لهم، وبناء على هذا الفهم الصحيح لا يجوز أن نقول إن عمر ﷺ ألغى العمل بالنص القرآني المتعلق بإعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة لأن ذلك من قبيل النسخ، ولا نسخ إلا من لدن صاحب الشرع نفسه وعليه فلا نسخ بعد وفاة رسول الله ﷺ.

لقد كان عمر ﷺ يراعي تغير الظروف والعلل التي بنيت عليها نصوص الأحكام، ولم يكن يقف مع ظواهرها كما سبق القول، كما كان الإنفاق في الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله وابن السبيل، وقد اعتنى القرآن الكريم بابن السبيل أيّما اعتناء، فقد جعل له سهماً من الزكاة ونصيباً من الفيء ومن خمس الغنائم، وعناية الإسلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين عناية فذة لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع، ويؤكد هذه العناية هدي النبي ﷺ والصديق ﷺ.

إن هذا التحديد للأصناف الثمانية يوجب على الدولة حصرهم وتتبع حالتهم وأن يكون هناك سجلات في كل بلد، ثم في المقر الرئيس للدولة، وقد كان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة، له فروع في سائر الولايات وقد كان ذلك في عهد الخليفة عمر ﷺ بعد تدوين الدواوين، إن نظرة إلى تلك الأصناف الثمانية الذين ذكرتهم الآية نلاحظ أنها قد شملت المصالح الدينية والسياسية والاجتماعية من دعوة للجهاد في سبيل الله، وتكوين الجيوش، والعمل على القضاء على الفقر، وسداد الدين، ودفع الحاجة عن ذوي الحاجة، أي أنها تشمل كل متطلبات المجتمع وإيجاد الأمن والمحبة والتآلف بين أفراده[1].

2- **الجزية**: هي الضريبة التي تفرض على رءوس من دخل ذمة المسلمين من أهل الكتاب.

وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب: وهم اليهود والنصارى وهو إجماع لا خلاف فيه ومن لهم شبهة كتاب: وهم المجوس، وقد حار عمر ﷺ في أمرهم في أول الأمر، أيأخذ منهم الجزية؟ أو لا يأخذها؟ حتى قطع عبد الرحمن بن عوف حيرته حين حدّثه أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

(1) سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، ص177 وما بعدها. الاجتهاد في الفقه الإسلامي ص132 وما بعدها. الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، مصطفى منجود، ص306 .

والجزية تجب على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري، كما أن الجزية لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من مقعد، والمقعد والزَّمِن إذا كان لهما يسار أخذت منهما وكذلك الأعمى وكذلك المترهبون الذين في الديارات إذا كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا مساكين يتصدّق عليهم أهل اليسار ولم يؤخذ منهم، وتسقط الجزية، بالموت، فإذا مات من تجب عليه الجزية سقطت الجزية، لأن الجزية واجبة على الرءوس، فإذا فاتت الرءوس بالموت سقطت، وبالإسلام، فإذا أسلم من فرضت عليه الجزية، سقطت عنه بإسلامه، فقد أسلم رجلان من أهل أليس، فرفع عنهما جزيتهما.

وتسقط بالافتقار، فإذا افتقر الذمي بعد غنى وأصبح غير قادر على دفع الجزية سقطت عنه الجزية وقد أسقطها عمر ﷺ عن الشيخ الكبير الضرير البصر عندما رآه يسأل الناس وفرض له ما يعوله من بيت المال، وتسقط عند عجز الدولة عن حماية الذميين، لأن الجزية ما هي إلا ضريبة على الأشخاص القاطنين في أقاليم الدولة الإسلامية، وتدفع هذه الضريبة في مقابل انتفاعهم بالخدمات العامة للدولة، علاوة على أنها نظير حمايتهم والمحافظة عليهم وبدل عدم قيامهم بواجب الدفاع عن الدولة ومواطنيها.

وقد تطور نظام الجزية في عهد عمر ﷺ، فأحصى السكان وميز بين الغني والفقير ومتوسط الحال، واستحدث كثيراً من الشروط والالتزامات في نصوص المعاهدات مما لم يعرف من قبل وذلك لاتساع العمران وبسط السلطان على مصر والعراق والشام ومخالطة المسلمين لأهل البلاد واتصالهم الدائم بحضارتها مما مكنهم من سياسة الدولة وشئون العمران وما تتطلبه طبيعة التدرج والنمو فأوجدوا ما لم يكن موجوداً من إصلاح الطرق والعمران وبناء القناطر والجسور التي هي عون الأمم المتحضرة، ومن هنا انتظمت الأمور، واتسعت البلاد ورسخت قواعد النظم المالية وغيرها[1].

(1) أهل الذمة في الحضارة الإسلامية حسن المِمّي، ص42. موسوعة فقه عمر بن الخطاب، محمد قلعجي، ص235-238-239. سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، عبد الله جمعان السعدي، ص174.

3 - **الخراج**: الخراج له معنيان: عام وهو كل إيراد وصل إلى بيت مال المسلمين من غير الصدقات، فهو يدخل في المعنى العام للفيء ويدخل فيه إيراد الجزية وإيراد العشور وغير ذلك، وله معنى خاص: وهو إيراد الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام كما فعل عمر ﷺ بأرض السواد من العراق والشام[1].

ولذلك عندما قويت شوكة الإسلام بالفتوحات العظيمة وبالذات بعد القضاء على القوتين العظيمتين الفرس والروم، تعددت موارد المال في الدولة الإسلامية وكثرت مصارفه، وللمحافظة على كيان هذه الدولة المترامية الأطراف وصون عزها وسلطانها، وضمان مصالح العامة، والخاصة كان لابد من سياسة مالية حكيمة ورشيدة، فكر لها عمر ﷺ، ألا وهي إيجاد مورد مالي ثابت ودائم للقيام بهذه المهام، وهذا المورد هو: الخراج فقد أراد الفاتحون أن تقسم عليهم الغنائم من أموال وأراضٍ وفقاً لما جاء في القرآن الكريم خاصاً بالغنائم. وقد أراد عمر ﷺ في بداية الأمر تقسيمً الأرض بعد الفاتحين، لكن عليَّ بن أبي طالب ﷺ رأى عدم التقسيم، وشاركه الرأي معاذ بن جبل ﷺ، وحذر عمر من ذلك، لقد نبه معاذ بن جبل ﷺ أمير المؤمنين عمر ﷺ إلى أمر عظيم، جعل عمر يتتبع آيات القرآن الكريم، ويتأملها مفكراً في معنى كل كلمة يقرأها حتى توقف عند آيات تقسيم الفيء في سورة الحشر، فتبين له أنها تشير إلى الفيء للمسلمين في الوقت الحاضر، ولمن يأتي بعدهم، فعزم على تنفيذ رأي معاذ ﷺ، فانتشر خبر ذلك بين الناس ووقع خلاف بينه وبين بعض الصحابة ﷺ، لكن تنفيذ الأمر كان في مصلحة المسلمين، فقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

إن الفاروق ﷺ كان يلجأ إلى القرآن الكريم يلتمس منه الحلول ويطوف بين مختلف آياته، ويتعمق في فهم منطوقها ومفهومها، ويجمع بينها ويخصص بعضها ببعض حتى يصل إلى نتائج تحقق المصالح المرجوة منها مستلهماً روح الشريعة غير واقف مع ظواهر النصوص وقد أسعفه في قطع هذه المراحل إدراكه الدقيق لمقاصد الشريعة بتلكم النصوص، وهي عملية مركبة ومعقدة لا يحسن الخوض فيها إلا من تمرس على الاجتهاد وأعطي فهماً سديداً

(1) الخراج، لأبي يوسف ص24.

وجرأة على الإقدام حيث يحسن الإقدام، حتى خيل للذين لا يرون أبعد من أقدامهم أن أمير المؤمنين عمر ﷺ كان يضرب بالنصوص عُرض الحائط في بعض الأحيان، وحاشا أن يفعل وهو من هو مع جلالة قدره وعظيم منزلته وجليل مناقبه وفضائله؛ لكنه كان مجتهداً ممتازاً اكتسب حاسة تشريعية لا تضاهى حتى كان يرى الرأي فينزل القرآن على وفقه، ذلك أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، ومثله في السنة، فعلى المجتهد وهو يبحث عن الحكم الشرعي أن يستعرض جميع النصوص التي تساعد على الحل دون الاقتصار على بعضها، وإلا عد مقصِّراً في اجتهاده، ويكون ما توصل إليه لاغياً[1].

4- **العشور**: هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلة أم خارجة من أراضي الدولة، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له (العاشر) أي الذي يأخذ العشور[2]، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد رسول الله ﷺ، وخليفته الأول أبي بكر الصديق ﷺ، لأن تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلامية، فلما اتسعت الدولة في عهد أمير المؤمنين عمر ﷺ، وامتدت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة، ضرورة تمليها المصلحة العامة، رأى الخليفة عمر ﷺ أن يفرض تلك الضريبة على الواردين إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجار المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل وقد أجمع المؤرخون، أن أول من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ وذلك عندما كتب إليه أهل منبج ومن وراء بحر عدن يعرضون عليه أن يدخلوا بتجارتهم أرض العرب وله منها العشر فشاور عمر في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأجمعوا على ذلك، فهو أول من أخذ منهم العشور، ولكن عمر ﷺ أراد أن يتأكد من مقدار ما تأخذه الدول الأخرى من تجار المسلمين إذا اجتازوا حدودهم، فسأل المسلمين كيف يصنع بكم الحبشة إذا دخلتم أرضهم؟ قالوا: يأخذون عشر ما معنا، قال: فخذوا منهم مثل ما يأخذون منكم، وسأل أيضاً عثمان بن حنيف كم يأخذ منكم أهل الحرب إذا أتيتم دارهم؟ قال: العشر، قال عمر: فكذلك فخذوا منهم، وروي أن أبا موسى

(1) الاجتهاد في الفقه الإسلامي، عبد السلام السليماني، ص131.
(2) الخراج لأبي يوسف ص271.

الأشعري ﷺ كتب إلى الخليفة عمر ﷺ: إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر، فكتب إليه الخليفة عمر ﷺ: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم.

وقد أسهم هذا التشريع الجديد في تنظيم العلاقات التجارية بين الدول، وقد حققت التجارة الإسلامية مكاسب كبيرة في عالم التجارة حيث فتحت أبواب الدولة الإسلامية للتجارة وجلبت البضائع والسلع إلى الدولة الإسلامية من كل أنحاء العالم وهذا بطبيعة الحال شجع التاجر المسلم والأجنبي على زيادة نشاطهم في التصدير، والاستيراد من كافة أنحاء العالم، وبذلك نشطت المراكز التجارية داخل بلاد الدولة الإسلامية بما فيها الجزيرة وزادت حركة القوافل التجارية القادمة والذاهبة من أقاليم الجزيرة إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى، كما استقبلت موانئ بلاد الإسلام السفن الكبيرة التي تصل إليها من الهند والصين وشرقي أفريقية محملة بأغلى وأنفس البضائع وظهر ذلك جلياً في العصر الراشدي والدولة الأموية، وقد كان في عهد الخليفة عمر ﷺ عشارون يأخذون زكاة ما يمر بهم من أموال التجار ويعتبرون النصاب والحول[1].

إن من يفكر في ذلك التحديد الذي رسمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قد يصل إلى أنه فرض العشر على الحربيين لمعاملتهم المسلمين كذلك، فهذا مبدأ المعاملة بالمثل، وأنه فرض نصف العشر على أهل الذمة تمييزاً لهم عن المسلمين، وتطبيقاً لما سبق أن فرضه على نصارى بني تغلب. الذين قبلوا أن تؤخذ منهم الجزية ضعف ما يؤخذ من المسلمين من الصدقة، وأن ما قرره على المسلمين هو بمثابة زكاة، ومعروف نصاب الزكاة لعروض التجارة، وهو الذي جعله حداً أدنى لأخذها ومنع من تكرار أخذها من المسلمين وأهل الذمة، ما دام رأس المال ثابتاً والبضاعة الواردة لم تزد قيمتها عنه، ولو تكرر مرات دخولها، إلا بعد الحول، وتمشياً لمبدأ المعاملة بالمثل، فإنه حينما يرفع أهل الحرب ما يأخذونه من

(1) انظر: موسوعة فقه عمر بن الخطاب، ص651 . سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، ص128. التجارة وطرقها في الجزيرة العربية، محمد العمادي، ص332 .

المسلمين من ضريبة، فيحق للمسلمين رفع الضريبة على ما يرد منهم إلى دار الإسلام بنفس النسبة، وكذلك الحال عند إسقاطهم لها، فعلى المسلمين إسقاطها عنهم.

وعندما يكون المسلمون في حاجة إلى بعض البضائع والمنتجات الواردة إليهم فإنهم يخفضون أو يعفون التجار من ضريبتها تشجيعاً لتوريدها، والإكثار منها، وقد فعل الفاروق عمر ﷺ عنه ذلك، حين أمر عماله أن يأخذوا نصف العشر من الحربيين حين دخولهم الحجاز بالزيت والحبوب، كما أمر بإعفائهم أحياناً أخرى.

أما مصارف الجزية والخراج والعشور، فإنها تصرف في أعطيات الخلفاء، والعمال والجند، وآل البيت، وزوجات المجاهدين وغيرها من أوجه الخير.

5-الفيء والغنائم: الفيء هو كل مال وصل المسلمين من المشركين من غير قتال، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب، ويوزع خمس الفيء على أهل الخمس الذين بينهم الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر].

أما الغنائم: فهي ما غلب عليه المسلمون من مال أهل الحرب حتى يأخذوه عنوة، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال].

ففي خلافة الفاروق عمر ﷺ زادت الغنائم زيادة كبيرة لاتساع المناطق المفتوحة ولما كانت تتمتع به من ازدهار اقتصادي كبير، وكان قادة الفرس والروم يخرجون إلى الميدان بكامل أبهتهم، فيقع سلبهم للمسلم.

أما توزيع الغنائم فقد قسمها الله تعالى ورسوله ﷺ كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال]، وأما أربعة أخماس الغنيمة الباقية فكانت توزع بين الغانمين للفارس ثلاثة أسهم -سهمان لفرسه وسهم له وللراجل سهم[1].

(1) الخراج لأبي يوسف ص22.

وبذلك أصبحت مخصصات السهمين تصرف في مصالح المسلمين العامة، كتجهيز الجيوش، وسد الثغور، والعمل على تقوية الدولة وتمكينها، في الخلافة العمرية، وأما مخصصات الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فقد بقيت كما كانت على أيام رسول الله ﷺ، ولم يطرأ عليها أي تغيير أو تعديل.

هذه بعض المعالم الواضحة للمؤسسة المالية في الدولة العمرية وكيف عمل الفاروق ﷺ على تطويرها، وقد كان ﷺ شديد الورع في المال العام ويظهر ذلك في قوله: "أنا أخبركم بما أستحل منه، يحل لي حلتان، حلة في الشتاء وحلة في القيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم"[1]، وكان يقول: «إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، من كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف»[2].

ب- تدوين الدواوين:

فتح المسلمون في الخلافة العمرية مدنا عظيمة كالمدائن وجلولاء وهمذان والري واصطخر وغيرها، فحازوا أموالاً عظيمة، فدعت الضرورة والحاجة إلى تخصيص مكان لهذه الأموال، وسجلات لتسجيل مداخلها ومخارجها.

فأحدث الفاروق عمر ﷺ بيتا للمال، وأمر بتدوين الدواوين:

بيت المال: هو المكان الذي ترد إليه جميع موارد الدولة، وهو كذلك المكان الذي تصرف منه جميع مصروفاتها من أعطيات الخلفاء والجيش والقضاة والعمال والمرافق العامة والخاصة للدولة...

أما الدواوين: فهي السجلات والدفاتر التي تسجل فيها أمور الدولة وقد أطلقت كلمة ديوان على المكان الذي يجتمع فيه الكتاب والموظفون العاملون بتلك السجلات عند الفرس، وفي بداية الدولة الإسلامية لم يكن هناك بيت مال بالمعنى الذي عرف به فيما

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 276. تاريخ المدينة، 2/ 698.
(2) المرجع نفسه.

بعد، فقد كانت سياسة رسول الله ﷺ تقوم على أن لا يؤخر تقسيم الأموال أو إنفاقها، وقد سار خليفته من بعده أبو بكر ﷺ على منهاج رسول الله ﷺ، ونهج الفاروق عمر ﷺ طريق صاحبيه في أول خلافته، حتى اتسع سلطان الدولة شرقاً وغرباً، فبدأ بالتفكير في طريقة يدبر فيها ما تجمع لدى الخليفة من أموال الفتوحات وغنائمها، وإيرادات الجزية والخراج والصدقات فكثرت الجيوش واحتاجت إلى ضبط احتياجاتها وأسماء رجالها خوفاً من ترك أحدهم دون عطاء، أو تكرار العطاء للآخرين وتوالت حملات الفتح وانتصاراتها، فكثرت الأموال بشكل لم يكن معروفاً لدى المسلمين من قبل، فرأى أمير المؤمنين عمر ﷺ أن لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها، وأنه ليس من الحكمة الاقتصادية أن يترك زمام الأمور المالية بيد العمال والولاة دون أن يضبطها عداً أو يحصيها حساباً، فكان نتيجة ذلك التفكير ملياً في وضع قواعد ثابتة لهذه الأموال، ومن هنا نشأ الديوان، وكان عمر ﷺ هو أول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية.

وكان وضع الديوان باستشارة الصحابة ﷺ، فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: "تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئا، وقال عثمان بن عفان ﷺ: أرى مالا كثيرا يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر. فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنودا، فَدَوِّن ديوانا وجند جنودا"[1].

وهناك اختلاف بين المؤرخين في العام الذي تم فيه التدوين، فمن قائل إن ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة كالطبري وعنه أخذ ابن الأثير وغيرهم وقال آخرون إن ذلك كان في شهر محرم من سنة عشرين هجرية كالبلاذري، والواقدي، والماوردي وابن خلدون وغيرهم...[2] والأرجح أن يكون تمّ في سنة عشرين هجرية، لأنه في سنة خمس عشرة كانت القادسية، ولم يستكمل فتح العراق والشام ومصر إلا بعدها.

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 295. تاريخ الطبري، 3/ 278. فتوح البلدان للبلاذري، 3/ 549.

(2) سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، ص157 وما بعدها.

وقد سار الخليفة عمر ﷺ في تقسيم الأموال على خلاف ما سار عليه أبو بكر الصديق ﷺ حيث كان الصديق ﷺ يقسم الأموال بين الناس بالسوية، في حين قسم عمر أعطياتهم على حسب السابقة في الإسلام والفضل في الجهاد ونصرة رسول الله ﷺ، وقد كان رأي الفاروق ﷺ هذا من زمن الصديق ﷺ وقال لأبي بكر لما رآه سوّى بين الناس قال له: أتسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟ فقال له أبو بكر: إنما عملوا لله وإنما أجورهم على الله، وإنما الدنيا دار بلاغ للراكب، فقال له عمر: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه...[1]، ولذلك قسم الفاروق الناس في العطاء إلى:

- ذوو السوابق الذين بسابقتهم حصل المال.
- من يغني المسلمين في جلب المنافع لهم كولاة الأمور والعلماء الذين يجلبون لهم منافع الدين والدنيا.
- من يبلي بلاء حسناً في دفع الضرر عنهم كالمجاهدين في سبيل الله من الجنود والعيون والناصحين نحوهم.
- ذوو الحاجات[2].

وبدأ أمير المؤمنين عمر ﷺ تسجيله بديوان سجل فيه أصحاب الأعطيات ومقدار أعطياتهم، وسمَّى ديوان الجند على أساس أن جميع العرب المسلمين جنود للجهاد في سبيل الله، فبدأ سجله للجيش ببني هاشم الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة، وجعل لكل واحد من المسلمين مبلغاً محدداً، وفرض لزوجات النبي ﷺ وسراريه، وسائر المسلمين من الرجال والنساء والأطفال منذ الولادة والعبيد بمقادير مختلفة، وبإخراج هذا الديوان أظهر عمر اهتمامه بأمر الجهاد في سبيل الله، واعتنى بأمر المجاهدين حفظاً لحقوقهم، وعمل سجل الجند باللغة العربية بالمدينة المنورة على يد نفر من

(1) الأحكام السطانية، للماوردي، ص201 .
(2) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أبو العباس أحمد ابن تيمية، ص74.

نوابغ قريش وعلماء الأنساب منهم، ثم أمر بعمل الدواوين في أقاليم الدولة الإسلامية، فدونت بلغة البلاد المفتوحة، ولم يتم تعريبها إلا في إمارة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وبعد تدوين الدواوين صار عمر ﷺ يجمع المال مدة سنة ثم يقسمه بين الناس، لأنه يرى أن جمعه أعظم للبركة، فكان جمع المال يستلزم أن يكون له أمناء فكان زيد بن أرقم ﷺ على بيت المال في الخلافة العمرية[1].

جـ- إصدار النقود الإسلامية:

تعتبر النقود من المعادن الثمينة كالذهب والفضة وهي وسيلة ضرورية للحياة الاجتماعية الخاصة والعامة، لاسيما في التعامل بين الأمم والدول، وقد أصبح للإسلام دولة فيها مسلمون وغيرهم من الناس، ويجاورها أمم ودول ذات نظم وحضارات، ظلت تتعامل مع الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر ﷺ وغيره، ولقد أبقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ على تداول النقود والعملة التي كانت متداولة قبل الإسلام وفي عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ بما كان عليها من نقوش هرقلية عليها نقوش نصرانية أو كسروية رُسم فيها بيت النار، بيد أنه أقرها على معيارها الرسمي المعروف على عهد النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ، مضيفاً إليها كلمة جائز، لتمييزها من البهارج الزائفات، فالذي ضرب النقود المسكوكة في الخارج وأقر التعامل بها وقرر الدرهم الشرعي في الإسلام هو الفاروق ﷺ يقول الماوردي: إن عمر بن الخطاب هو الذي حدد مقدار الدرهم الشرعي، ويقول المقريزي: وأول من ضرب النقود في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ سنة ثماني عشر من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها: الحمد لله. وفي بعضها: لا إله إلا الله، وعلى جزء منها اسم الخليفة عمر ﷺ، وعليه فإن الفاروق ﷺ قد وضع تنظيماً خاصاً لوسيلة من وسائل الحياة الضرورية للمسلمين وغيرهم أثناء حكمه وقد تبعه الخلفاء الراشدون وغيرهم ممن طوروا هذا الأمر مع تطور وتقدم المدنية والحضارة[2].

(1) تاريخ الطبري، 3/ 278. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، 13/ 114.
(2) الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، فاروق مجدلاوي، ص364-366. الأحكام السلطانية، ص147.

6- إصلاحاته القضائية:

عندما انتشر الإسلام، واتسعت رقعة الدولة في عهد عمر ﷺ، وارتبط المسلمون بغيرهم من الأمم، دعت حالة المدنية الجديدة إلى تطوير مؤسسة القضاء، فقد كثرت مشاغل الخليفة، وتشعبت أعمال الولاة في الأمصار، وزاد النزاع والتشاجر، فرأى عمر ﷺ أن يفصل الولايات بعضها عن بعض وأن يجعل على سلطة القضاء قضاة مستقلون، حتى يتفرغ الوالي لإدارة شئون ولايته، فأصبح للمؤسسة القضائية قضاة مستقلون، عن الولايات الأخرى، كولاية الحكم والإدارة فكان ﷺ بهذا أول من جعل للقضاء ولاية خاصة، فعين القضاة في الأمصار الإسلامية، في الكوفة والبصرة والشام، ومصر، وجعل القضاء سلطة تابعة له مباشرة، سواء كان التعيين من الخليفة، أم كان بتفويض أحد ولاته بذلك نيابة عنه، وهذا يدل على أن القيادة الإسلامية متمثلة في شخصية الفاروق ﷺ، لم تكن عاجزة عن وضع قواعد أصلية، في تنظيم الدولة وترتيب شئونها، وتحديد سلطاتها وإذا كانت أوربا قد اكتشفت هذه القاعدة بصورة نظرية في القرن الثامن عشر، واعتبرتها فتحاً جديداً في تنظيم الدولة، وفي رعاية حقوق المواطنين، يوم تحدث عنها (مونتسكيو) في كتابة "روح الشرائع"، ولكن لم يكتب لهذه القاعدة التطبيق العملي إلا في أوائل القرن التاسع عشر، أي بعد الثورة الفرنسية، فإن الإسلام قد أقرّها قبل أربعة عشر قرناً، واعتبرها أصلاً من أصول نظامه وقد كان هذا الأصل من زمن رسول الله ﷺ حين أرسل معاذاً إلى اليمن وسأله رسول الله ﷺ بما تقضي يا معاذ؟ فبين معاذ أنه يقضي بكتاب الله، فإن لم يجد فبسنة رسول الله، فإن لم يجد يجتهد رأيه ولا يألو، فأقره رسول الله على ذلك[1].

أما الخليفة عمر ﷺ، فقد قام بتطوير المؤسسة القضائية وما يتعلق بها من أمور، وأصبح في عهده مبدأ فصل القضاء عن غيره من السلطات واضحاً في حياة الناس ولم يكن استقلال ولاية القضاء مانعاً لعمر ﷺ من أن يفصل في بعض القضايا، وربما ترك بعض ولاته يمارسون القضاء مع السلطة التنفيذية، ويراسلهم في الشئون القضائية، وكان مقر القاضي حاضرة

(1) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، ح3592. مسند أحمل بن حنبل، 5/242.

الولاية وإليه ترجع السلطة القضائية في ولايته، وقد تم فصل السلطة القضائية في الولايات الكبيرة على الغالب، مثل الكوفة، ومصر، وقد جمع لبعض ولاته بين الولاية والقضاء إذا كان القضاء لا يشغلهم عن شئون الولاية، وراسلهم بهذا الوصف في شئون القضاء، وكان يقوم بالقضاء في بعض الأحيان مع وجود قضاة له بالمدينة المنورة[1].

لقد وضع أمير المؤمنين عمر ﷺ دستوراً قوياً في نظام القضاء والتقاضي، وخير دليل على هذا رسالته لأبي موسى الأشعري ﷺ وهذا نص الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آسِ بين الناس في وجهك وعَدْلِكَ ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرّم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه عَقْلَكَ، وهُدِيتَ فيه لرشدك: أن ترجع إلى الحقِّ، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التّمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعْرِف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك واعْمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحقِّ واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه وإلا استحْللت، عليه القضيّة، فإنه أنفى للشك، وأجْلى للعَمَى، المسلمون عدول، بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدٍّ، أو مُجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السَّرائر، ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والغلق، والضجر والتأذي للخصوم، والتنكر عند الخصومات فإن القضاء في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذُّخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه: شانه الله فما ظنك بثواب الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام[2].

(1) انظر: القضاء في الإسلام، عطية مصطفى، ص77. النظام القضائي في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القطان، ص47.

(2) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، 1/ 86. صبح الأعشى، 10/ 197. سنن البيهقي، 2/ 775.

وقد جمعت هذه الرسالة العجيبة آداب القاضي، وأصول المحاكمة، وقد شغلت العلماء بشرحها والتعليق عليها هذه القرون الطويلة ولا تزال موضع دهشة وإكبار لكل من يطلع عليها، ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها، لعد بها من كبار المفكرين والمشرعين ولو كتبها رئيس دولة في هذه الأيام التي انتشرت فيها قوانين أصول المحاكمات، وصار البحث فيها مما يقرؤه الأولاد في المدارس، لكانت كبيرة منه، فكيف وقد كتبها عمر ﷺ منذ نحو أربعة عشر قرناً، ولم ينقلها من كتاب ولا استمدها من أحد، بل جاء بها في ذهنه، ثمرة واحدة من آلاف الثمرات، للغرسة المباركة التي غرسها في قلبه رسول الله محمد ﷺ، حين دخل عليه في دار الأرقم، فقال أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ.

أما عن تعيين القضاة واختصاصهم:

فإن الخليفة هو الذي يعينهم؛ فقد عين عمر بن الخطاب ﷺ شريحاً بالكوفة، أو يكون التعيين من الوالي بتفويض من الخليفة، ويجوز للخليفة أن يعزل القاضي لسبب من الأسباب الداعية إلى ذلك، كما إذا زالت أهلية القاضي وصلاحيته للحكم، أو ثبت عليه ما يخل بواجب القضاء، وإن لم يجد سبباً للعزل فالأولى أن لا يعزله، لأن القاضي معيّن لمصلحة المسلمين فيبقى ما دامت المصلحة محققة، وقد عزل عمر ﷺ بعض القضاة وولى غيرهم. وكان عمر ﷺ يوصي الولاة باختيار الصالحين للقضاء، وبإعطائهم المرتبات التي تكفيهم.

أما اختصاصات القاضي فقد كان يقضي في الخصومات كلها، أيّا كان نوعها، في المعارضات المالية، وفي شئون الأسرة، وسائر ما يكون فيه الشجار، وليس هناك ما يشير إلى ما يعرف اليوم بالاختصاص القضائي.

وكان القضاة يقضون في الحقوق المدنية وقضايا الأسرة، أما القصاص والحدود فكان الحكم فيها للخلفاء، وأمراء الأمصار، فلا بد من موافقتهم على الحكم، ثم انحصرت الموافقة على تنفيذ حد القتل بالخليفة وحده، وبقي للولاة حق المصادقة على أحكام القصاص دون القتل، ولم يكن للقضاء مكان مخصص، بل يقضي القاضي في البيت والمسجد، والشائع جلوسهم في المسجد، ولم تكن الأقضية تسجل لقلتها وسهولة حفظها، وكان بإمكان القاضي حبس المتهم للتأنيب واستيفاء الحقوق، وقد فعل ذلك عمر وعثمان وعلي، فكانت الدولة تهيء السجون في مراكز المدن، وكان القصاص ينفذ خارج المساجد.

أما أهم صفات القاضي في عهد عمر ﷺ فهي:

- العلم بالأحكام الشرعية: لأنه سيطبقها على الحوادث، ويستحيل عليه تطبيقها مع الجهل بها.
- التقوى: فقد كتب الفاروق عمر ﷺ إلى معاذ بن جبل ﷺ وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ أن انظرا رجالاً من صالحي من قبلكم فاستعملوهم على القضاء.
- الترفع عما في أيدي الناس: فقد قال عمر ﷺ: لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع.
- الفطنة والذكاء والانتباه إلى دقائق الأمور.
- الشدة في غير عنف واللين من غير ضعف.
- قوة الشخصية: قال عمر: "لأعزلن فلانا عن القضاء ولأستعملن على القضاء رجلاً إذا رآه الفاجر فرِقَه"[1].
- أن يكون ذا مال وحسب: فقد كتب عمر إلى بعض عماله: «لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب؛ فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس».

- ما يجب على القاضي:

هناك أمور بينها الفاروق لابد للقاضي من مراعاتها لإقامة صرح العدالة منها:

- الإخلاص لله في العمل.
- فهم القضية فهماً دقيقاً: ودراستها دراسة واعية قبل النطق بالحكم ولا يجوز له النطق بالحكم قبل أن يتبين له الحق،
- الحكم بالشريعة الإسلامية: سواء كان الخُصوم من المسلمين أم من غير المسلمين.

(1) سنن البيهقي، 10/ 108.

- الاستشارة فيما أشكل عليه من الأمور.
- المساواة بين المتخاصمين، وتشجيع الضعيف: حتى يذهب عنه الخوف ويجترئ على الكلام.
- سرعة البت في دعوى الغريب أو تعهده بالرعاية والنفقة.
- سعة الصدر، وتجنب كل ما من شأنه التأثير على القاضي: كالرشوة، وتساهل التجار معه في البيع والشراء والهدايا ونحو ذلك، ولذلك منع عمر ﷺ القضاة من العمل بالتجارة، والصفق بالأسواق، وقبول الهدايا والرشاوي.
- الأخذ بالأدلة الظاهرة: دون البحث عن النوايا. والحرص على الصلح بين المتخاصمين. والعودة إلى الحق.
- تقرير البراءة للمتهم حتى تثبت إدانته.
- لا اجتهاد في مورد النص.
- إخضاع القضاة أنفسهم لأحكام القضاء.

مصادر الأحكام القضائية:

اعتمد القضاة في العهد الراشدي على نفس المصادر التي اعتمدها رسول الله ﷺ وقضاته، وهي الكتاب والسنة والاجتهاد ولكن ظهر في العهد الراشدي أمران:

- تطور معنى الاجتهاد والعمل به، وما نتج عنه من مقدمات ووسائل وغايات، فظهرت المشاورة والشورى، والإجماع، والرأي والقياس.
- ظهور مصادر جديدة لم تكن في العهد النبوي، وهي السوابق القضائية التي صدرت عن الصحابة من عهد خليفة إلى خليفة آخر، فصارت مصادر القضاء في العهد الراشدي هي؛ الكتاب، والسنة، والاجتهاد والإجماع، والقياس، والسوابق القضائية ويظلل ذلك كله الشورى والمشاورة في المسائل والقضايا والأحكام[1].

(1) تاريخ القضاء في الإسلام، محمد الزحيلي، ص118.

7- منجزاته العمرانية:

أ- إعادة بناء الحرمين الشريفين:

كان المسجد النبوي على عهد رسول الله ﷺ مبنيا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر الصديق خليفة ﷺ رسول الله ﷺ شيئا، وزاد فيه الفاروق عمر ﷺ وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد، وأعاد عمده خشبا، وجعل أبوابه ستة.

وكان المسجد الحرام فناء حول الكعبة وفناء للطائفين ولم يكن له على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ جدار يحيط به، وكانت الدور محدقة به وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية، فلما استخلف عمر بن الخطاب ﷺ وكثر الناس، وسع المسجد واشترى دورا وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جدارا قصيرا دون القامة، وكانت المصابيح توضع عليه، وكان عمر ﷺ أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام.

ب- تجديد بناء المسجد الأقصى المبارك:

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله «ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها، إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ. ويقال: أنه لبى حين دخل بيت المقدس، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، و صلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة [ص] و سجد فيها والمسلمون معه، و في الثانية بسورة «بني إسرائيل» ثم جاء إلى الصخرة فأستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال : ضاهيت اليهودية. ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس، وهو العمري اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة من طرف ردائه و قبائه، و نقل المسلمون معه في ذلك، و سخر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة، لأنها قبلة اليهود، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة؛ وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب فجعلوا يلقون على

قبره القمامة، فلأجل ذلك سمي ذلك الموضع القمامة، وانسحب الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك»[1].

هكذا قام الفاروق عمر ﷺ بتجديد بناء المسجد الأقصى في عام 15 هـ. وقد أعاد بناءه من الخشب الذي وضعه على الجُدُر مباشرة دون عقود، فكان بذلك أول من رفع قواعد المسجد الأقصى في الإسلام.

ج- إنشاء مدن إسلامية جديدة:

اقتضى انتشار العرب المسلمين في أرجاء العالم وضع نظام اجتماعي يكفل لهم تحقيق الرسالة الإسلامية التي خرجوا من أجلها من ديارهم، وهي نشر الإسلام والجهاد في سبيله، تمخضت معالم هذا الجهاد عن تأسيس الأمصار لتحفظ لأولئك العرب المسلمين كيانهم وتوفر لهم البيئة السليمة التي تناسب دينهم وطبيعة حياتهم. فبنيت الأمصار الإسلامية على النمط الإسلامي، حيث تطبق فيها جميع الشرائع الإسلامية، فكانت الأنموذج الأمثل للعمران الإسلامي، ومن هذه المدن، البصرة والكوفة في العراق والجابية في الشام، والفسطاط في مصر. ثم ازداد عدد تلك الأمصار باتساع الفتوح.

وكان بناء هذه الأمصار على نمط إسلامي، فتوسطتها المساجد وانتشرت حولها بيوت الجند، ومن هذه المجتمعات انبثق نور الإسلام وطبق العدل في المجتمع بين جميع فئاته عربيها وعجمها أسودها وأبيضها، حاكمها ومحكومها.

وقد اشترط الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ في اتخاذ المدن الجديدة ألا تبنى في مكان يحول بينه وبين المدينة ليسهل الإمداد، لأنه كان يخشى من جهل العرب بركوب البحر، كما رأى الفاروق عمر ﷺ أن تكون هذه الأمصار معسكرات لا مدنا عامرة، فأمر أن يكون البناء بالقصب حتى لا يركن الجنود إلى الترف والبناء الفاخر فتوهن عزيمتهم وتثبط همتهم.

وتميزت هذه الأمصار على جانب كونها مراكز إدارية للبلاد الواسعة التي تتبعها بأنها خضعت مباشرة للخلافة.

---

(1) البداية و النهاية، 7/ 65.

د- بناء دار الدقيق:

اتخذ عمر بن الخطاب ﷺ في عهده داراً خاصة أطلق عليها (دار الدقيق)، وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ومن ينزل بعمر، ووضع عمر ﷺ في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء.

هـ- حفر خليج عمر بن الخطاب:

سمي هذا الخليج باسم عمر بن الخطاب ﷺ، وهو خليج قديم، جدد حفره في الخلافة العمرية، عندما علم ﷺ أن خليجا كان يجري بين النيل من قرب حصن بابليون إلى البحر الأحمر، فكان يربط الحجاز بمصر، وييسر تبادل التجارة، ولكن الروم أهملوه، فردم. أمر الفاروق ﷺ عامله على مصر عمرو بن العاص بشق هذا الخليج مرة أخرى.

و- إصلاح الطرق والجسور:

اهتمت الدولة الإسلامية، في خلافة عمر ﷺ، بعد توسع الفتوحات بإصلاح الطرق والجسور. وذلك عن طريق إبرام معاهدات ولاتها مع البلدان التي يتم فتحها.

ز- التقويم الهجري:

يعد التاريخ بالهجرة تطوراً له أهميته الكبرى في النواحي الحضارية العمرانية، وكان أول من وضع التاريخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر ﷺ، وذلك عندما قدم إليه ﷺ صك مكتوب عليه كلمة (شعبان) قال عمر ﷺ: كيف نعلم أن المقصود شهر شعبان الماضي أم الحالي؟ فعقد مجلسًا للشورى حضره كبار الصحابة ﷺ وعرض هذه المسألة، أي تحديد التاريخ حتى لا تقع الأخطاء في العقود والمعاملات، فقال بعضهم: أرخوا من مولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون: من مبعثه، وأشار علي ﷺ إلى أن يؤرخ من الهجرة، فاستحسن عمر هذا الرأي، واستقر الأمر على أن تكون بداية التأريخ من بداية هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأرخوا من محرمها.

روى الإمام ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- في سبب جعلهم بداية التاريخ في شهر محرم وليس في ربيع الأول الشهر الذي تمت فيه هجرة النبي ﷺ أن الصحابة ﷺ الذين أشاروا على عمر ﷺ وجدوا أن الأمور التي يمكن أن يؤرخ بها أربعة، هي مولده ومبعثه وهجرته ووفاته، ووجدوا أن المولد والمبعث لا يخلو من النزاع في تعيين سنة حدوثه، وأعرضوا عن التأريخ بوفاته لما يثيره من الحزن والأسى عند المسلمين، فلم يبق إلا الهجرة، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان من المحرم، إذ وقعت بيعة العقبة الثانية في ذي الحجة، وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هو هلال محرم، فناسب أن يُجعل مبتدأ.. ثم قال ابن حجر: وهذا أنسب ما وقعت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم[1].

وأفاد الإمام السهيلي -رحمه الله- في الروض الأنف (4/ 255) أن الصحابة ﷺ أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ... ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة] لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً، فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر وهو الوقت الذي عز فيه الإسلام، وعبد فيه النبي ﷺ ربه آمناً، وأسّس المساجد، فوافق رأي الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم.

وبهذا الحدث الإداري المتميز أسهم الفاروق ﷺ في إحداث وحدة شاملة بكل ما تحمله الكلمة من معنى في شبه الجزيرة العربية، حيث ظهرت وحدة العقيدة بوجود دين واحد، ووحدة الأمة بإزالة الفروق، ووحدة الاتجاه باتخاذ تاريخ واحد، فاستطاع أن يواجه عدوه وهو واثق من النصر.

8- *الفتوحات الإسلامية في العهد العمري:*

أ-الجبهة الفارسية:

تابع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ الفتوح التي بدأ أبو بكر الصديق ﷺ في أرض الهلال الخصيب -الشام والعراق- فبعث الخليفة عمر ﷺ بالإمدادات العسكرية إلى

(1) فتح الباري، 7/ 28.

العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ، وانتصر القائد الإسلامي الجديد على الفرس في معركة القادسية الحاسمة عام 16هـ-637م.

وكانت القادسية تعرف بأنها باب فارس. وقد تابع المسلمون منها الزحف على فارس، حيث سقطت في أيديهم المدائن عاصمتها آنذاك دون قتال.

وتتابعت فتوح المسلمين بعد ذلك في قلب بلاد فارس، ففتحوا جلولاء وهو الآن على الحدود بين العراق وإيران. وتم النصر للمسلمين على الفرس عند نهاوند، التي تقع في قلب بلاد فارس وأشدها وعورة. ولذا أطلق المسلمون على هذا النصر "فتح الفتوح"، ولم يستطع آخر أكاسرة الفرس متابعة المقاومة وفر من الميدان، حتى قبض عليه وقتل بخراسان سنة 31 في خلافة ذي النورين عثمان ﷺ. وصارت بلاد فارس جزءا من الدولة الإسلامية الفتية، وأخذ أهلها يدخلون في رحاب الإسلام ويعرفون عند العرب باسم "الموالي".

ب- على الجبهة البيزنطية:

بدأت الانتصارات الرائعة على يد المسلمين بقيادة سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ واستمرت في خلافة الفاروق عمر ﷺ ففتحوا أجنادين سنة 13 هـ وهي على الطريق بين غزة وبيت المقدس، ثم سقطت في أيديهم فحل، وهي حصن يسيطر على معبر الأردن، وأدى ذلك إلى فتح دمشق عام 14 هـ، وأخيرا أنزل خالد بن الوليد الهزيمة الساحقة الماحقة بالبيزنطيين في معركة اليرموك الحاسمة في 15 رجب من عام 15هـ.

ولما علم هرقل إمبراطور الروم بهزيمة قواته في اليرموك، فر إلى عاصمته القسطنطينية مودعا بلاد الشام قائلا: "عليك يا سورية السلام، ونعم هذا البلد للعدو".

وعهد الفاروق الذي تلقى أنباء معركة اليرموك بالقيادة العليا للمسلمين في الشام إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ بدلا من خالد بن الوليد ﷺ. وكان الموقف يتطلب هذا القائد الجديد لقدرته على الإدارة وتنظيم بلاد الشام. وتطلبت الظروف أيضا ذهاب الخليفة نفسه إلى الشام لإتمام تنظيمه.

ج- فتح مصر:

تولى فتح مصر القائد عمرو بن العاص بعد أن تلقى الأمر بذلك من الخليفة عمر، واجتاز الحدود المصرية عام 18هـ وبدأ في فتح حصونها ومدنها حتى فتح الإسكندرية عام 21هـ وصارت جزءا من الدولة الإسلامية الفتية، ومركزا هاما من مراكز الدفاع عن هذه الدولة، وتجلت أهميتها أنها أصبحت قاعدة لفتوح المسلمين في بلاد المغرب وهي الفتوح التي أتمها الأمراء الأمويون.

د- فتح القدس ١٦هـ:

لعلّ مدينة القدس أو بيت المقدس كانت من البواعث القوية التي جعلت خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ يسرع في إرسال جنود الإسلام لفتح بلاد الشام، حيث المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى خاتم النبيين ﷺ ومعراجه، وهو المسجد الثاني بعد الكعبة الذي يقام في الأرض لعبادة الله تعالى وحده،ولذا جعله سيدنا رسول الله ﷺ أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدّ إليها الرحال، ويضاعف فيها الأجر، وتواترت الأحاديث النبوية في فضل ديار الشام عامة، وفضل القدس خاصة.

إلا أن الخليفة أبا بكر الصديق ﷺ قضى نحبه قبل أن يتم فتح فلسطين، وشهدت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ أشد المراحل حسماً في تقرير مصير فلسطين، فبعد سلسلة من الفتوحات في بلاد الشام توجه القائد أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ نحو مدينة القدس، وحاصر الروم بداخلها لمدة أربعة أشهر قطع فيها كل سبل الحياة عليهم، وبعد ضيق شديد أصاب النصارى طلب البطريرك من المسلمين عبر الرسل أن يخبروه عن صفات أميرهم في المدينة، فأخبروه بصفات عمر بن الخطاب ﷺ، فطابق الوصف ما كان موجودا في كتبهم المقدسة، فطلب المفاوضات مع قائد جيش المسلمين أبو عبيدة بن الجراح ﷺ، فجاءه أبو عبيدة ﷺ، فسأله البطريرك: لماذا تريدون فتح هذه البلدة المقدسة؟! إن من قصدها يوشك أن يغضب الله عليه ويهلكه! فقال له أبو عبيدة: إنها بلدة شريفة، وفيها عرج بنبينا إلى السماء فكان قاب قوسين أو أدنى، وهي معدن الأنبياء وقبورهم فيها، ونحن أحق منكم بها، ولا نزال عليها إلى أن يملكنا الله إياها كما ملكنا غيرها. فقال البطريرك: فما الذي تريدون منا؟!

فقال: واحدة من ثلاث: إما الإسلام، وإما الجزية والصلح، وإما القتال. فوافق البطريق على الصلح، لكنه اشترط ألا يدخلها أحد قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

فكتب أبو عبيدة إلى عمر ﷺ كتابا مع وفد من المسلمين ووفد من الروم ولما وصل المرسلون إلى المدينة وجدوا أمير المؤمنين عمر ﷺ زاهدا ليس له رغبة في الدنيا ولا بجميع الحظوظ والشهوات، فقد ألقى بنفسه حين أصابه الحر نائما على الأرض، فقالوا بهذا غلب الأمم، وأخذ كنوز كسرى وقيصر، وغلب فارس والروم، فقرأ عمر الكتاب على أهل الشورى واستشارهم فأشار ذو النورين عثمان ﷺ بعدم ذهابه، وقال إنهم ولله الحمد مقهورون على كل حال ومخذولون، وأشار علي المرتضى ﷺ بذهابه وقال: يا أمير المؤمنين إن في ذهابك نصرا وعزا للمؤمنين وفتحا، وصغارا وذلا على الكافرين، ولك فيه الأجر والثواب في مشقات ذلك السفر وأتعابه، فاختار عمر المسير، وقال: نادوا بالمؤمنين بالمسير، فعسكر خارج المدينة وجوه قريش والأنصار والعباس عم المصطفى ﷺ، حتى تكامل الجيش فجعل على المدينة علي بن أبي طالب ﷺ، وسار وقت غداة وهو يقبل بوجهه على المسلمين ويقول: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ورحمنا بنبيه محمد ﷺ، فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به بعد الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا به على الأعداء، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا إخوانا متحابين، فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة واسألوه المزيد منها والشكر عليها، وتمام ما أصبحتم متقلبين فيه منها، فإن الله يتم نعمته على الشاكرين.

فلما قاربوا بيت المقدس، فإذا الرايات والرماح والجنود قد أقبلت لاستقبال أمير المؤمنين عمر الفاروق ﷺ، وأقبل المسلمون يصفون الخيل ويشرعون الرماح في طريق عمر ﷺ، حتى طلع أبو عبيدة ﷺ في عظيم الناس، فإذا بعمر ﷺ عليه ثياب متواضعة مشققة الجوانب، متقلدا سيفه، يجر بعيره بغلامه، فلما نظر إلى عمر أناخ كل منهما راحلته، ولما أرادا المصافحة أخذ أبو عبيدة يد عمر يقبلها، فقال عمر ﷺ: يا أبا عبيدة، وأهوى يقبل رجل أبي عبيدة، فتراجع أبو عبيدة وقال: يا أمير المؤمنين، فعندها تعانقا وسارا يتحدثان.. ثم قال الفاروق ﷺ قولته المشهورة: "أنتم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله تبارك وتعالى بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله تعالى".

ولما قدم عمر ﷺ بيت المقدس نزل على الجبل الشرقي وهو الطور، وجاءه رسول بطريقها بالترحيب، وقال: إنا سنعطي بحضورك ما لم نكن نعطه لأحد دونك، وسأله أن يقبل منهم الصلح والجزية، وأن يعطيه الأمان على دماءهم وأموالهم وكنائسهم، فقبل عمر بذلك. وجاءه البطريق»صفرونيوس» الدمشقيّ، الذي هاله وأرعبه تواضع أمير المؤمنين ﷺ، وعظم شأن الإسلام في عينيه، وقال لقومه: إن أحدا في هذه الدنيا لا يستطيع الوقوف في وجه هؤلاء القوم، فسلموا لهم تنجوا، وتم توقيع العهدة العمريّة، وضمنها شرطٌ بِناءً على طلب البطريرك وهو ألا يسكن اليهود فيها، وأعطاهم الأمن والأمان، وبذلك عرفت القدس الشريف أرحم فاتح في التاريخ من غير قتال، وطلب عمر ﷺ من البطريق أن يدله على مسجد داود عليه السلام فقال: نعم، فسار عمر متقلدا بسيفه في أربعة آلاف من الصحابة ﷺ متقلدين سيوفهم حتى دخلوا المسجد الأقصى، ووجدوا على الصخرة شيئا كثيرا من روث الدواب ونحو ذلك، تلقيه الروم غيظا لليهود، وسأل عمر كعبا وتشاوره في مكان بناء المسجد، فأشار كعب ببنائه شمال الصخرة ليكون متوجها إلى القبلتين، فقال عمر: لقد ضاهيت اليهود وأمر ببنائه جنوب الصخرة، وجعل يرفع الروث عن الصخرة بعبائه ويساعده المسلمون في ذلك، ثم غادرها بعد عشرة أيام.

لقد فتح المسلمون القدس الشريف لأسبابٍ دينيّة وارتيادية بعد انتصارهم على الرومان في معركة اليرموك، وتم هذا الفتح العظيم سنة 15 هجرية.

وبدخول الإسلام والمسلمين مدينة بيت المقدس بدأ التغيير التلقائي والتدريجي للطابع العمراني فيها: إذ انتشر الإسلام واللغة العربية، وذلك متناسب مع أصل المدينة العربي، وحل السلام والأمن والتعايش والتسامح بين سكانها، مسلمين ونصارى.

وهذا نص العهدة العمرية لأهل القدس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء

معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّي بِيَعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشر»[1].

إن كتاب الصلح الذي أبرمه عمر ﷺ يشهد شهادة حق بأن الإسلام دين تسامح وليس دين إكراه وهو شاهد عدل بأن المسلمين عاملوا النصارى الموجودين في القدس معاملة لم تخطر على بالهم إن عمر وهو الفاتح كان يستطيع أن يفرض عليهم ما يشاء، وأن يجبرهم على ما يريد، ولكنه لم يفعل لأنه كان يمثل الإسلام، والإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ولا يقبل من أحد إيماناً إلا عن طواعية وإذعان، إن الإيمان ليس شيئاً يجبر عليه الناس لأنه من عمل القلوب، والقلوب لا يعلم مخبآتها إلا الله سبحانه فقد يريك الإنسان أنه مؤمن وليس كذلك وتكون مضرته لأهل الإيمان أكثر ممن يجاهرون بالكفر والإلحاد ولهذا آثر المسلمون أن يعطوا الناس حرية العبادة، ويؤمنوهم على كل عزيز لديهم على أن يعيشوا في كنف المسلمين، ويؤدوا الجزية مقابل حمايتهم والذود عنهم، وفي ظلال الحياة الهادئة الوديعة وفي رحاب الصلات والجوار، وفي كنف المسلمين وعدالتهم سيرى غير المسلمين عن قرب جمال الإسلام وسماحته وإنصافه وعدالته وسَيَرون فيه الحقائق التي قد عميت عليهم لبعدهم عنه، وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً كما حدث في كل البلاد التي فتحها المسلمون، وأعطوا أهلها مثل هذا الأمان.

(1) تاريخ الطبري، (طبعة دار الكتب العلمية)، 2/ 449.

هـ- فتح ليبيا:

بعد فتوحات العراق والشام ومصر انتقلت إلى أفريقيا ففتح المسلمون طرابلس وبرقة بليبيا، غير أن الخليفة عمر ﷺ كان يخشى على جيوش المسلمين من الانسياح في جبهة جديدة ولم يطمئن بعد إلى ما فتحت في زحفها السريع من الشام إلى طرابلس، فأمر القوات الإسلامية بالتوقف عند طرابلس، وبذلك امتدت دولة الإسلام في الخلافة العمرية لتشمل مساحة شاسعة من الأرض، الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر، وفارس وأرمينيا وأذربيجان وجرجان وبلاد ما وراء النهر، وطرابلس وبرقة في أفريقيا، فكانت بلاد الإسلام في عهده يحدها من الشرق نهر جيحون والسند ومن الغرب بلاد إفريقية وصحراؤها، ومن الشمال جبال آسيا الصغرى وأراضي أرمينيا، ومن الجنوب المحيط الهادي وبلاد النوبة في دولة عالمية واحدة متعددة الأجناس والنحل والعادات، عاش أهلها في عدل الإسلام ورحمته، ذلك الدين الذي احتفظ لهم بحقهم في الحياة الكريمة وإن اختلفوا معه في عقائدهم؛ومع أهله في عاداتهم وأعرافهم[1].

لقد أنتجت الفتوحات الإسلامية حضارة إنسانية رفيعة في ظل دين الإسلام، وبذلك نستطيع أن نعرف الحضارة الربانية بأنها: تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة الواحدة لخلافة الله في الأرض عبر الزمن، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والكون والإنسان.

و- كتبه إلى قادة جنده:

جاء الأمر من عمر أمير المؤمنين ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ بالرحيل من زرود[2] إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية التالية: «أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم،

(1) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين حمدي شاهين ص231 .

(2) زرود: موضع بطريق مكة بعد الرمل.

وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منَّا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرُبَّ قوم سلط عليهم شرٌّ منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولا، اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لناولكم، وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشِّمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، جامٍّ الأنفس والكراع -الخيول-، وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة، يجمعون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونحَّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلنها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوفوا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعض، والغاش عين عليك وليس عيناً لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبثّ السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عورتهم، وانتق الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوا كان أول من تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص أحداً يهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعالجهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنيعته بك ثم

أذك حراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان»[1].

فهذا خطاب عظيم يشتمل على وصايا نافعة، وسنن إلهية ثابتة في النصر والهزيمة، يوضح لنا جانباً مهماً من عظمة عمر ﷺ في الفقه السنني، وخبرته العالية في التخطيط الحربي، وقد كان التوفيق الإلهي واضحاً في كل توجيهاته ووصاياه، ونصرا مؤزرا للمؤمنين لما ساروا على هدي السنن الإلهية في النصر التمكين.

8 - في وداع عمر ﷺ:

كان أمير المؤمنين الفاروق ﷺ مثالاً للخليفة العادل المؤمن، المجاهد النقي الورع، القوي الأمين، الحصن المنيع للأمة وعقيدتها، قضى ﷺ خلافته كلها في خدمة دينه وعقيدته وأمته التي تولى أمر قيادتها، فكان القائد الأعلى للجيش والفقيه المجتهد الذي يرجع الجميع إلى رأيه، والقاضي العادل النزيه، والأب الحنون الرحيم بالرعية، صغيرها وكبيرها، ضعيفها وقويها، فقيرها وغنيها، الصادق المؤمن بالله ورسوله ﷺ، السياسي المحنك المجرب والإداري الحكيم الحازم، أحكم بقيادته صرح الأمة، وتوطدت في عهده دعائم الدولة الإسلامية، وتحققت بقيادته أعظم الانتصارات على الفرس في معارك الفتوح، فكانت القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند، وتمّ فتح بلاد الشام ومصر من سيطرة الروم البيزنطيين، ودخل الإسلام في معظم البلاد المحيطة بالجزيرة العربية، وكانت خلافته سداً منيعاً أمام الفتن، وكان عمر ﷺ باباً مغلقاً لا يقدر أصحاب الفتن الدخول إلى المسلمين في حياته، ولا تقدر الفتن أن تطل برأسها في عهده.

كان الفاروق عمر ﷺ لا يأذن للسبايا في الأقطار المفتوحة بدخول المدينة المنورة، عاصمة دولة الخلافة، فكان يمنع مجوس العراق وفارس، ونصارى الشام ومصر من الإقامة في المدينة إلا إذا أسلموا ودخلوا في هذا الدين، وهذا الموقف يدل على حكمته وبعد نظره، لأن هؤلاء القوم المغلوبين المنهزمين حاقدون على الإسلام، مبغضون له، مهيئون للتآمر

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه، الجزء الأول.

والكيد ضد الإسلام والمسلمين ولذلك منعهم من الإقامة فيها لدفع الشرِّ عن المسلمين ولكنّ بعض الصحابة ﷺ كان لهم عبيد ورقيق من هؤلاء السبايا النصارى أو المجوس، وكان بعضهم يلحُّ على عمر ﷺ أن يأذن لبعض عبيده ورقيقه من هؤلاء المغلوبين بالإقامة في المدينة، ليستعين بهم في أموره وأعماله، فأذن عمر لبعضهم بالإقامة في المدينة، على كره منه ووقع ما توقَّعه الفاروق ﷺ وما حذّر منه.

قال عمرو بن ميمون: إني لقائم[1] ما بيني، وبينه إلا عبد الله بن عباس، غداة أصيب وكان إذا مرّ بين الصفين، قال استووا، فإذا استووا ، تقدّم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر، فسمعته يقول: قتلني -أو أكلني- الكلب، حين طعنه، فطار العلج[2] بسكين ذات طرفين، لا يمرُّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرْنساً، فلما ظنّ العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر ﷺ يد عبد الرحمن بن عوف فقدّمه -للصلاة بالناس-، فمن يلي عمر، فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرُون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال عمر: يا ابن عباس، انظر من قتلني، فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَع[3]، قال: نعم، قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدّعي الإسلام قد كنت أنت وأبوك يريد العباس، وابنه عبد الله تحبّان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً، فقال عبد الله إن شئت، فعلت، أي: إن شئت قَتَلنا. قال: كذبت -أي: أخطأت- بعدما تكلموا بلسانكم، وصلّوا قبلتكم، وحجوا حجّكم. فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فأُتي بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثمّ أتي بلبن فشربه فخرج من جُرْحه، فعلموا أنه ميت...

---

(1) أي قائم في الصف ينتظر صلاة الفجر.

(2) العلج: الواحد من كفار العجم، والجمع علوج وأعلاج وهو يعني أبا لؤلؤة.

(3) يشير إلى غلام المغيرة بن شعبة، أبو لؤلؤة، فيروز.

وقال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل، يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين[1]، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يبقى مع صاحبيه.. فسلّم عبد الله بن عمر، واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السَّلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّه به اليوم على نفسي، فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهمُّ إليّ من ذلك.. فإذا أنا قضيت فاحملني ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذن لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين. قال: فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلّم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت عائشة: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه[2].

وفي حديث أبي رافع: «أن غلام المُغِيرَة أبا لؤلؤة المجوسي لقيَ عمرَ؛ فقال: إن المُغِيرَة أثقل عليَّ. فقال: اتَّقِ الله وأحْسِن إليه، ومن نيَّة عمر أن يلقى المُغِيرَة فيكلِّمه فيخفِّف عنه، فقال العبد: وَسِعَ النَّاس عدله غيري. وأضمر على قتله»[3].

هذا ما روته كتب التاريخ عن استشهاد عمر ﷺ، وليت شعري ما لأبي لؤلؤة وأمير المؤمنين عمر ﷺ، هل كان سيده الذي أرهقه؟ نقول لا، هل عرف عن الخليفة عمر ﷺ الظلم والجور بحيث لم يبق أمام أبي لؤلؤة خيار سوى القتل؟ نقول حاشى أن يكون خليفة المسلمين بهذه الصورة، ألم يأمر الخليفة المغيرة بن شعبة بالإحسان إلى عبده؟ ألم يكن أولى بأبي لؤلؤة أن يقتل المغيرة بدلا من خليفة المسلمين الذي ليس له ذنب فيما حصل إن كان هناك ذنب فللمغيرة؟.

---

(1) وإنما قال ذلك لئلاَّ تفهم أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها- أنه أمرٌ، وهو الإمام؛ فطاعته واجبةٌ، فترك لها الخيار، وطلب منها هذا الطلب على سبيل الرَّجاء، وليس على سبيل الأمر.

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ﷺ، ح3497.

(3) أخرجه أبو يعلى (2731) والحاكم (3/ 91) والبيهقي (4/ 16) وصححه ابن حبان (6905).

هذه التساؤلات تدفع القارئ المتمعن إلى أن يلمس من وراء مقتل أمير المؤمنين دوافع سياسية كبرى، ومؤامرات خفية، ودسائس خطط لها بليل، وإن وراء أبي لؤلؤة[1] جهات كبرى لا يستهان بها، ولعلنا لا نغالي حينما نحمل الفرس واليهود والنصارى تلك الجريمة البشعة التي ارتكبت بحق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، نستشف ذلك من خلال حادثة انتقام عبيد الله بن عمر بن الخطاب لدم أبيه بقتله للهرمزان[2] وجفينة[3] النصراني -هما رجلان فارسيان-، متهما إياهم بالاشتراك في قتل والده، وذلك استنادا إلى شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه شاهد عند الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة قبل يوم من حادث الخنجر الذي طعن فيه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ[4]، وكان خنجرا غريبا ذا رأسين لم يعهد استخدامه في المجتمع العربي مما يدل على أن سلاح الجريمة جيء به من بلاد فارس أو انه من مقتنيات الهرمزان ودفع لأبي لؤلؤة لقتل الخليفة، وفي هذا دليل على أن العملية قد دبر لها من قبل أكثر من جهة، فإذا كان أبو لؤلؤة متضررًا فما علاقة الهرمزان وجفينة حتى يهيئوا له سلاح الجريمة ما لم تكن هناك مؤامرة قد دبرت من قبل قادة الفرس المتضررين حيث الفتوحات الإسلامية التي قادها الخليفة عمر ﷺ، وسقوط الإمبراطورية الفارسية وفقدانهم لمراكزهم وامتيازاتهم .

أضف إليه إجلاء الفاروق عمر ﷺ لليهود ونصارى نجران من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق، والمعروف عن اليهود أنهم جبلوا على دس الدسائس وتدبير المؤامرات،

(1) أبو لؤلؤة فيروز: كان عبدا للمغيرة بن شعبة أخذه من حروب الفرس، وكان مجوسيا فارسيا صناعا حدادا ماهرا.

(2) الهُرْمُزان: الفارسي المجوسي، ملك الأهواز، ومن كبار قادة الفرس في حربهم ضد المسلمين، في معركة القادسية، وقبلها وبعدها. وقد هزمه الله هزيمة ساحقة على أيدي المسلمين المجاهدين في معركة «تَسْتُر» في الأهواز، وأُلقي القبض عليه وسيق إلى المدينة سنة 18 هـ، وبقي فيها بعدما أخذ الأمان من الفاروق عمر ﷺ.

(3) جُفَيْنَة: عبد رقيق نصراني رومي، كان من سبي الروم في فتوح الشام، وصار رقيقا من نصيب أحد المسلمين، وأقام في المدينة.

(4) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال حين قتل عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن بن أبي بكر. الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 355. تاريخ الطبري، 3/ 302.

ولا أعتقد أن بمجرد إجلائهم ستتوقف دسائسهم، فرأس الحية مازال حيا، وإخراج الحية من الجزيرة العربية لا يعني انقطاع سمها، بل ستنتهز أي فرصة لبث سمومها من جديد، وكان إجلاءها إلى العراق فرصة للتحالف مع الفرس المجوس لتدبير مكيدة لاغتيال الفاروق عمر ﷺ، فكان الأمر كذلك.

وخلاصة القول: لقد اشترك في اغتيال الفاروق عمر ﷺ أطراف ثلاثة: المجوس واليهود والنصارى.

استمر اهتمام الفاروق عمر ﷺ بوحدة الأمة ومستقبلها، حتى اللحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من آلام جراحاته البالغة، وهي بلا شك لحظات خالدة، تجلى فيها إيمان الفاروق ﷺ العميق وإخلاصه وإيثاره، وقد استطاع ﷺ في تلك اللحظات الحرجة أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها في اختيار الخليفة الجديد وكانت دليلاً ملموساً، ومعلماً واضحاً على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية. لقد مضى قبله رسول الله ﷺ ولم يستخلف بعده أحدا بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق ﷺ واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة ﷺ، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر في الأمر مليًا وقرر أن يسلك مسلكا آخر يتناسب مع المقام، وقد حصر ستة من صحابة رسول الله ﷺ كلهم يصلحون لتولي الأمر ولو أنهم يتفاوتون وهم: (علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله ﷺ)، وترك سعيد بن زيد ﷺ ولم يرشحه للخلافة وهو من العشرة المبشرين بالجنة، ولعله تركه لأنه من قبيلته بني عدي. وكان عمر الفاروق ﷺ حريصا على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، وأمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا وفيهم عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يحضر معهم مشيرا فقط وليس له من الأمر شيء، ويصلي بالناس أثناء التشاور صهيب الرومي ﷺ، وقال له: أنت أمير الصلاة في هذه الأيام الثلاثة. حتى لا يولي إمامةَ الصلاة أحدا من الستة فيصبح هذا ترشيحا من عمر له بالخلافة، وأمر المقداد بن الأسود وأبا طلحة الأنصاري -رضي الله عنهما- أن يرقبا سير الانتخابات، وحدد لهم مدة الانتخاب في ثلاثة أيام، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير

الانتخابات في المجلس، ومعقابة من يخالف أمر الجماعة، ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الشورى أو أهل الحل والعقد.

وكانت هذه وصيته لمن سيتولى الأمر بعده، ويخلفه في قيادة الأمة :" أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وحده لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا؛ أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم. وأوصيك بأهل الأمصار خيرا، فإنهم ردء العدو، وجباة الفيء، لا تحمل منهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموالهم فترد على فقرائهم. وأوصيك بأهل الذمة خيرا؛ أن تقاتل من وراءهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا، أو عن يد وهم صاغرون. وأوصيك بتقوى الله والحذر منه، ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورك، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم؛ فإن في ذلك -بإذن الله- سلامة لقلبك وحطًّا لوزرك، وخيرا في عاقبة أمرك حتى تفضي في ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك، وآمرك أن تشتد في أمر الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد الرأفة حتى تنتهك منه مثل جرمه، واجعل الناس عندك سواء، لا تبالِ على مَنْ وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين فتجور وتظلم وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط لك اقترفت به إيمانا ورضوانا، وإن غلبك الهوى اقترفت به غضب الله. وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة، وقد أوصيتك وخصصتك ونصحتك، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسي وولدي، فإن عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك أخذت منه نصيبا وافرا وحظا وافيا، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك، ولم تترك معاظم الأمور عند الذي يرضى به الله عنك، يكن ذلك بك انتقاصا، ورأيك فيه مدخولا؛ لأن الأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس داع إلى كل مهلكة، وقد أضل القرون السالفة قبلك فأوردهم النار وبئس المورود، وبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعدو الله الداعي

إلى معاصيه. ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظا لنفسك. وأناشدك الله إلا ترحمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضر بهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمِّرهم في البعوث فينقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، هذه وصيتي إليك، وأشهد الله عليك وأقرأ عليك السلام"[1].

كانت هذه وصيته ﷺ للخليفة من بعده، وهي تدل على بُعْد النظر في مسائل الحكم والإدارة والقيادة، وتفصح عن منهاج حكم متكامل؛ وهي وثيقة نفيسة لما احتوته من قواعد أساسية لنظام الحكم، متكاملة الجوانب الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

طُعِن ﷺ فجر الأربعاء 26 ذي الحجة، سنة 23ه، واستشهد بعد ثلاثة أيام من طعنه: ليلة الأحد الأول من شهر محرم الحرام 24هـ ودفن في نفس الليلة، وصلى عليه صهيب الرومي ﷺ، استشهد ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، في العمر الذي توفي عليه رسول الله ﷺ وخليفته الصديق ﷺ، وكانت خلافته عشرة أعوام ونصفاً وأياماً.

والمجوسي -أبو لؤلؤة- الذي قتل الفاروق عمر ﷺ قام أحبابه أعداء الإسلام ببناء مشهد تذكاري له على غرار الجندي المجهول في إيران يقول السيد حسين الموسوي من علماء النجف: "واعلم أن في مدينة كاشان الإيرانية، في منطقة تسمى (باغي فين) مشهداً على غرار الجندي المجهول، فيه قبر وهمي لأبي لؤلؤة فيروز الفارسي المجوسي، قاتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث أطلقوا عليه ما معناه بالعربية (مرقد بابا شجاع الدين)، وبابا شجاع الدين هو لقب أطلقوه على أبي لؤلؤة لقتله عمر بن الخطاب، وقد كتب على جدر هذا المشهد بالفارسي: (مرك بر أبو بكر، مرك بر عمر، مرك بر عثمان) ومعناه بالعربية: الموت لأبي بكر، الموت لعمر، الموت لعثمان وهذا المشهد يُزار من قبل الشيعة الإيرانيين، وتُلقى

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 339. البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1/ 236.

فيه الأموال، والتبرعات، وقد رأيت هذا المشهد بنفسي، وكانت وزارة الإرشاد الإيرانية قد باشرت بتوسيعه وتجديده، وفوق ذلك قاموا بطبع صورة على المشهد على كارتات تستخدم لإرسال الرسائل والمكاتيب"[1].

ما أحوجَنا إلى استرجاعِ سِيرة الخليفة العادل أمير المؤمنين ﷺ في زمَنٍ تناسَى الناسُ فضلَ الصحابة الكرام ﷺ بلَ كثُر الهجوم والطعْن على سادتنا الصحابة مِن قِبَل مَنْ لا دِينَ لهم ولا خَلاقَ، قال الإمام الطحاويُّ -رحمه الله- في «العقيدة الطحاوية»: «حبُّهم دِينٌ وإيمان، وبُغضُهم كفرٌ وفسوق وطُغيان».

(1) لله ثم للتاريخ كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار، ص94.

المحور الرابع

ذو النورين وزوج الابنتين وصاحب الهجرتين

عثمان بن عفان ﷺ

أولا: نبذة من حياته:

1- ولادته ونسبه:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، القرشي، الأموي، يجتمع هو والنبي ﷺ في عبد مناف وهو ثالث الخلفاء الراشدين.

ويكنى بأبي عبد الله وأبي ليلى، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس أسلمت وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلمت وماتت في خلافة ابنها عثمان ﷺ.

ويلقب ذا النورين؛ لأنه تزوج ابنتي رسول الله ﷺ رقية -بعد إسلامه- ثم ماتت بعد غزوة بدر الكبرى، ثم تزوج أختها أم كلثوم ثم ماتت تحته، وروي أن رسول الله ﷺ قال: "لو كانت لي ثالثة؛ لزوجته إياها".

ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين على الصحيح.

أما صفاته الخِلقية: ذكر أهل السير أنه رجل جميل ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، رقيق البشرة، عظيم اللحية، أسمر اللون، كثير شعر الرأس.

وكان ﷺ أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمور، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته وكان شديد الحياء ومن كبار التجار، اهتم بتجارته التي ورثها عن والده، ونمت ثرواته، وأصبح يعد من رجالات بني أمية الذين لهم مكانة في قريش كلها، فقد كان المجتمع المكي الجاهلي الذي

عاش فيه عثمان يقدر الرجال حسب أموالهم، ويهاب فيه الرجال حسب أولادهم وإخوتهم ثم عشيرتهم وقومهم، فنال عثمان مكانة مرموقة في قومه، ومحبة كبيرة.. لم يسجد ﷺ في الجاهلية لصنم قط، ولم يشرب خمرا قبل الإسلام، ولم تجذبه أغاني الشباب ولا حلقات اللهو، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة.

2- إسلام عثمان ﷺ:

عن يزيد بن رومان قال: خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلا على رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله، فآمنا وصدقا فقال عثمان: يا رسول الله قدمت حديثا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام إذا مناد ينادينا: أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك[1].

أسلم عثمان بن عفان ﷺ مبكرًا على يد الصديق أبي بكر ﷺ قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان عمره قد تجاوز الثلاثين.

وأوذي عثمان ﷺ وعُذب في سبيل الله تعالى على يد عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي أخذه فأوثقه رباطا وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلُّك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان ﷺ: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[2].

وهو رابع من أسلم من الرجال، ومن السابقين الأولين، وهاجر الهجرتين، فهو أول المهاجرين إلى الحبشة مع زوجه رقية -رضي الله عنهما-، وهاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها؛ إلا وقعة بدر؛ فإنه كان يمرض زوجته رقية، وضرب له رسول الله ﷺ بأجره وسهمه، وهو سفير الإسلام إلى قريش يوم الحديبية، وكاتب الوحي.

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 55.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 55.

3- بعض فضائله ومناقبه:

أما عن أخلاقه وفضائله ومناقبه: فكان ﷺ عظيم الخُلق، شديد الحياء، رفيع التهذيب، عالي التربية، كثير القنوت، سليم الطوية، عظيم الخوف من الله تعالى، أوابًا لربه، ثبت عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «...وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان»[1].

كان عثمان ﷺ أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «كنت مع رسول الله ﷺ في حديقة بني فلان والباب علينا مغلق إذ استفتح رجل فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله بن قيس –وهو اسم أبي موسى الأشعري– قُم فافتح له الباب وبشره بالجنة»، فقمت ففتحت الباب فإذا أنا بأبي بكر الصديق فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله ودخل وقعد. ثم أغلقت الباب فجعل النبي ﷺ ينكت بعود في الأرض فاستفتح آخر فقال: «يا عبد الله بن قيس قم فافتح له الباب وبشره بالجنة»، فقمت ففتحت فإذا أنا بعمر بن الخطاب فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله ودخل فسلم وقعد وأغلقت الباب. فجعل النبي ﷺ ينكت بذلك العود في الأرض إذ استفتح الثالث الباب فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله بن قيس قم فافتح الباب له وبشره بالجنة على بلوى تكون» فقمت ففتحت الباب فإذا أنا بعثمان بن عفان فأخبرته بما قال النبي ﷺ فقال: «الله المستعان وعليه التكلان» ثم دخل فسلم وقعد»[2].

عن أبي عبد الرحمن: أن عثمان ﷺ حيث حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من حفر رومة فله الجنة». فحفرتها ألستم تعلمون أنه قال «من جهز جيش العسرة فله الجنة». فجهزته قال: فصدقوه بما قال[3].

ولما أنفق أموالا عظيمة يوم العسرة قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «اللّهُمّ ارْضَ عَنْ عُثْمَانَ، فَإِنّي عَنْهُ رَاضٍ»[4].

---

(1) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل ﷺ، ح3790. قال الألباني: صحيح.
(2) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق.
(3) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضا أو بئرا، ح2626.
(4) سيرة ابن هشام، 2/ 517.

وعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعا في بيتي كاشفا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه. فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!»[1].

عن النعمان بن بشير ﷺ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فلما رأينا رسول الله ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى، فكان آخر كلام كلَّمه أن ضرب منكبه وقال: «يا عثمان، إن الله -عز وجل- عسى أن يلبسك قميصا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني. يا عثمان، إن الله عسى أن يلبسك قميصا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثا. فقلت لها: يا أم المؤمنين، فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله فما ذكرته[2].

إن شخصية ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ شخصية قيادية، وقد اتصف ﷺ بصفات القائد الرباني، فمن أهم صفاته: إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب البذل والعطاء والسخاء، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات. وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربانية استطاع أن يحافظ على الدولة ويقمع الثورات التي حدثت في الأراضي المفتوحة، وينتقل بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطى ثابتة.

---

(1) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ، ح2401.
(2) مسند أحمد بن حنبل، 6/ 86. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

4 - حياة عثمان ﷺ مع القرآن الكريم:

كان المنهاج التربوي الذي تربى عليه عثمان بن عفان ﷺ وكل الصحابة الكرام ﷺ الصحبة المباشرة لرسول الله ﷺ وتلقي نور القرآن الكريم، المنزل من عند رب العالمين على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقي في ظلال الصحبة النبوية، فقد حرص الحبيب المصطفى ﷺ على توحيد مصدر التلقي وتفرده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهاج الذي يتربى عليه الفرد المسلم والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة في محضنه التربوي، فكانت الآيات الكريمة التي سمعها عثمان ﷺ من سيدنا رسول الله ﷺ مباشرة وتشربها من قلبه الشريف كان لها أثرها في صياغة شخصية ذي النورين الإسلامية؛ فقد طهر قلبه، وزكت نفسه، وتفاعلت معها روحه؛ فتحول إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته.

وكان له ﷺ تعلق فريد بالقرآن الكريم، حافظا لكتاب الله، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، وكان يقول: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف، وما مات عثمان ﷺ حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه» وقالت زوجته يوم الدار: «اقتلوه أو دعوه، فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة»[1].

وقال غير واحد: «إنه رضي الله عنه كان لا يوقظ أحدا من أهله إذا قام من الليل ليعينه على وضوئه، إلا أن يجده يقظانا، وكان يصوم»[2].

إن الرافد القوي الذي أثر في شخصية سيدنا عثمان ﷺ وصقل مواهبه وفجر طاقته، وهذب نفسه هو صحبته المباشرة لسيدنا رسول الله ﷺ وتتلمذه على يديه في مدرسة النبوة، وملازمته له في مكة والمدينة، وأحبه حبا شديدا، وبذل ماله ونفسه في سبيل الله.

لقد تربى عثمان ﷺ على المنهاج القرآني، وكان المربي له رسول الله ﷺ، وكانت نقطة البدء في تربية عثمان ﷺ هي لقاءه برسول الله ﷺ، فحدث له تحول غريب واهتداء مفاجئ

(1) البداية والنهاية، 7/ 240.
(2) البداية والنهاية، 7/ 240.

بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ، فخرج من دائرة الظلام إلى دائرة النور، واكتسب الإيمان وطرح الكفر، وقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل الإسلام وعقيدته السمحة. كانت شخصية رسول الله ﷺ تملك قوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله على عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض، فهو ﷺ لا يحبه لذاته فقط كما يحب العظماء من الناس، ولكن أيضا لتلك النفخة الربانية التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم، ومن ثم يلتقي في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئا واحدا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية، حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ﷺ، ويرتبط حب الله بحب رسوله ﷺ، ويمتزجان في نفسه فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة ﷺ هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطقها الذي تنطلق منه[1].

ثانيا: الأمين عثمان بن عفان ﷺ ثالث الخلفاء الراشدين

1- كيفية استخلافه ومبايعته:

عندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ، هرع إليه بعض الصحابة ﷺ يطلبون منه أن يستخلف، ولكنه أبى بادئ الأمر بقوله: فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني -يعني أبا بكر- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني -يعني رسول الله ﷺ- ولن يضيع الله دينه).

لكنهم أعادوا عليه الكرة، ففوض الأمر إلى الستة الذي مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأوصى بأن تكون الخلافة للذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفه ابنه عبد الله في حالة تساوي الأصوات، واضعا لهم أسس الشورى والخطوات التي ينبغي عليهم اتباعها، ثم أوصاهم قائلًا: «فإذا وليتم واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه»[2].

(1) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، ص34، 35. سيرة سيدنا عثمان بن عفان للصلابي.
(2) تاريخ الطبري، 3/ 293.

وقد كان عمر ﷺ يخشى أن يميل الخليفة من بعده إلى أقاربه ويحابيهم ويحرم ذوي الكفايات فتسوء الحال فقال لعلي ﷺ: «إن وليت من أمر المؤمنين شيئا فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس . وقال لعثمانﷺ: يا عثمان إن وليت من أمر المسلمين شيئا فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس»[1].

وبعد وفاة عمر ﷺ، اجتمع هؤلاء الرهط فخلع عبد الرحمن نفسه، فابتعد عن منافسة الباقين وخضع لمشيئتهم إذا أرادوا تفويض الاختيار له، فقبلوا أن يفعل ذلك.

واستشار عبد الرحمن بن عوف ﷺ كل من كان حاضرًا من وجوه المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين حضروا الحج مع عمر ﷺ قبل وفاته. ثم اجتمع بالرهط الذين عينهم عمر واحدًا فواحد، وبعد مشاورات ومجادلات بينهم انحصر الاختيار في نهاية المطاف بين عثمان وعلي -رضي الله عنهما-. قال عبد الرحمن موجهًا الكلام إلى علي ﷺ بعد استقرار الرأي على عثمان ﷺ:

«أما بعد يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلًا. فقال: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون»[2].

وقَبِل عثمان بن عفان ﷺ التقيد بمنهاج سلفيه أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- فضلًا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما علي فقد تحفظ، إذ سأله عبد الرحمن: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده» فكانت إجابته: «أرجو أن أفعل بمبلغ علمي وطاقتي»، أما عثمان فقد أجاب بالإيجاب على الفور دون تعليقه على العلم ومدى الطاقة كما فعل علي[3].

وكان هذا الاختيار -أي لعثمان دون علي- موضع اهتمام أهل السنة أنفسهم قبل الشيعة. فقد تساءل أبو وائل - كما ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده- حيث سأل عبد الرحمن بن

(1) الطبقات الكبرى، لابن سعد، 3/ 343.
(2) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ح6781.
(3) انظر: تاريخ الطبري، 3/ 297.

عوف عن السبب الذي من أجله بايع الصحابة عثمانًا دون علي، فأجاب «ما ذنبي؟ فقد بدأت بعلي. فقلت: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة أبي بكر وعمر، فقال: فيما استطعت، ثم عرضت ذلك على عثمان فقال: نعم"[1].

وكان في مقدمة من بايع عثمان ﷺ علي، وسعد، والزبير، وطلحة، وسعيد بن زيد، ﷺ.

وما أن أشرقت شمس يوم الأربعاء الرابع من شهر محرم الحرام، في العام الرابع والعشرين للهجرة، حتى كان أهل الشورى من المسلمين قد بايعوا ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ خليفة للمسلمين، وبذلك كان ﷺ ثالث الخلفاء الراشدين.

وبعدما تمت له المبايعة –وهو في السبعين من عمره– صلى بالناس صلاة العصر، ثم صعد منبر رسول الله ﷺ، وخطب في المسلمين خطبة الخلافة.

لا يشك مؤمن في أحقية صحة خلافة سيدنا عثمان ﷺ، وأنه لا مطعن فيها لأحد إلا ممن أصيب قلبه بزيغ فنقم على أصحاب رسول الله ﷺ بسبب ما حل في قلبه من الغيظ منهم، وهذا لم يحصل إلا من الشيعة الروافض الذين جعلوا رأس مالهم في هذه الحياة الدنيا هو سب الصحابة ﷺ وثلبهم، ولا قيمة لما يوجهونه من المطاعن على خلافة الثلاثة ﷺ لظهور بطلانه، وأنها افتراءات باطلة وأكاذيب مزعومة وإشاعات لا تصح. فأنى للأقزام أن تطال الجبال الراسيات، وأنى للمتسولين على أبواب القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية أن ينالوا ممن اختارهم الله واصطفاهم من فوق السبع الطباق، فلا شك أن حال الروافض كحال من يلقي بنفاياته على وجه الشمس، فتعود نفاياته عليه وتبقى الشمس هي الشمس ساطعة بضيائها وهاجة بنورها ثابتة في عليائها!

2 - سياسته ﷺ ومنهاجه في الحكم:

أ- منهاجه في الحكم:

عندما بويع عثمان بن عفان ﷺ بالخلافة قام في الناس خطيبا فأعلن عن منهاجه في الحكم، مبينا أنه سيتقيد بالقرآن والسنة وسيرة الشيخين –رضي الله عنهما–، كما

(1) مسند أحمد بن حنبل، 1/ 75.

أشار في خطبته إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها؛ خوفا من التنافس والتباغض والتحاسد بينهم، مما يفضي بالأمة إلى الفرقة والخلاف. وكان عثمان ﷺ ينظر وراء الحجب ببصيرته النفاذة إلى ما سيحدث في هذه الأمة من الفتن بسبب الأهواء وتهالك الناس بعدما بويع.

قال ﷺ في أول خطبته يوم مبايعته للخلافة: بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ قال: «إنكم في دار قُلْعَة وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتُم صبحتم أو مسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا؟ ألم تلفظهم ؟

ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلا فقال عز وجل: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف][1].

وروي كذلك أنه افتتح خلافته بهذه الخطبة: بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺقال:»أما بعد، فإني كلفت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثلاثا: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسنتم، وسنن أهل الخير فيما تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة. وإن الدنيا خضرة وقد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»[2].

ومن هذه الخطبة نستنبط منهاجه في الحكم:

(1) تاريخ الطبري، 3/ 305.
(2) انظر: تاريخ الطبري، 3/ 446.

- اتخاذ القرآن والسنة وهدي الخليفتين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- هم مرجعيته في دولته، تمسكا بقول رسول الله ﷺ فيما -رواه عنه حذيفة بن اليمان ﷺ-: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[1]، ووفاء بشروط المبايعة.

لقد خضعت خلافة صاحب الهجرتين ﷺ لأحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها، وأصبحت سيادة الشريعة فيها فوق كل تشريع وفوق كل قانون، وأعطت لنا صورة مشرقة على أن الدولة الإسلامية دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكامها، والحاكم فيها مقيد بأحكامها لا يتقدم ولا يتأخر عنها.

- حق الأمة في محاسبة الخليفة ونقده: إذا خالف نصًّا صريحًا ورد في القرآن الكريم والسنة، وأن يكون الإجراء الذي يتخذه مخالفا مع روح الشريعة ومقاصدها. أو خالف ما اتفقت عليه الأمة الإسلامية أو خرج على إرادتها. ويتجلى هذا في قوله ﷺ: «إن وجدتم في كتاب الله عز وجل أن تضعوا رجلي في القيد فضعوها»[2].

- الالتزام بمبدأ الشورى لكونها فريضة قرآنية: لقوله ﷺ في كتابه إلى عماله: «أما بعد فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ولا تبدلوا، ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم، وإياكم أن تغيروا فإني لست قابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل»[3]. فألزم عماله بذلك، فكانوا إذا هموا بالغزو والتقدم في الفتوحات الإسلامية استأذنوه واستشاروه، فيجمع الصحابة ﷺ ويستشيرهم في ذلك وما يتطلبه من إعداد وتنفيذ، ووضع الخطط المناسبة لذلك، ثم يرسل إليهم ما اجتمع عليه أهل الشورى وما اتفقوا عليه من الأمر.

- العدل في الحكم وفي توزيع الأرزاق والمساواة بين الناس جميعا: حيث كتب ﷺ في الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم، وكتب إلى الناس إلى الأمصار: أن

(1) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، ح3663. قال الألباني: صحيح. مسند احمد بن حنبل، 5/ 382.
(2) مسند أحمد بن حنبل، 1/ 72. قال شعيب الأرنؤوط : صحيح.
(3) تاريخ الطبري، 3/ 318.

ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يذل المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوما إن شاء الله[1].

لقد كانت سياسته ﷺ في رعيته تقوم على العدل بأسمى صوره؛ فقد أقام الحد على والي الكوفة الوليد بن عقبة (أخوه لأمه) عندما شهد عليه الشهود بأنه شرب الخمر، وعزله عن الولاية بسبب ذلك.

وكان يقوم بالحسبة بنفسه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصح الناس، وينبههم، ويذكرهم بالله والدار الآخرة..

- الحريات (حرية العقيدة الدينية، وحرية التنقل، وحق الأمن، وحرمة المسكن، وحرية الملكية، وحرية الرأي): سار رضي الله عنه على منهاج الشريعة والخليفتين من قبله فأمن الحريات للناس ضمن دائرة الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها. وقد تجلت الحرية في أبهى صورها في عهده.

ب- سياسته الداخلية:

تتجلى سياسة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ الداخلية في الكتب التي وجهها إلى ولاته وعماله وأمراء أجناده والتي استفتح بها عهده وخلافته:

كان أول كتبه ﷺ إلى جميع ولاته:

«أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، لم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[2].

(1) انظر: تاريخ الطبري، 3/ 427.
(2) تاريخ الطبري 3/ 306.

وكان أول كتاب كتبه إلى قادة الأجناد في الأقاليم:

«أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون؛ فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه»[1].

كتابه إلى عمال الخراج:

«أما بعد، فإن الله خلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد؛ فإن الله خصم لمن ظلمهم»[2].

كتابه إلى العامة:

«أما بعد، فإنكم إنما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: «الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا»»[3].

وبهذه الكتب الثلاثة حدد الخليفة الراشد سياسته الداخلية، وإنا لنلاحظ فيها وفاء بعهد البيعة، فقد التزم بأن يعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويقتدي بالخليفتين الصديق والفاروق -رضي الله عنهما-، ومن أجل هذا اطمأن الناس إلى سياسته، وعاد الجميع إلى أمصارهم وهم يتوقعون الخير في عهده، وكيف وهو بدأ العهد معهم بزيادة مخصصاتهم وأعطياتهم.

فكان مناديه ينادي: "يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل،

(1) تاريخ الطبري 3/ 306.
(2) تاريخ الطبري 3/ 306-307.
(3) تاريخ الطبري 3/ 307.

الأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متقى، وذات البين حسن، والخير كثير»[1].

وكان ﷺ لينا عطوفا يسأل عن أحوال رعيته حتى قبل خطبته يوم الجمعة: فعن موسى بن طلحة قال: «رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل عن أسعارهم وعن قدامهم وعن مرضاهم»[2].

وكان يؤثر الحق على كل شيء، فيرسل إلى عماله ويلزمهم بحضور موسم الحج كل عام، ويكتب إلى الرعايا: من كانت له عند أحد منهم مظلمة فليواف إلى الموسم فإني آخذ له حقه من عامله[3].

وعندما ظهرت الفتنة وبوادر الثورة في عهده بكثرة الإشاعات والرسائل المزورة المنسوبة إلى كبار الصحابة ﷺ، وتحض على الثورة ضد عثمان ﷺ لاتهامه باتهامات كاذبة جمع مستشاريه واستشارهم في الأمر واتفقوا على إرسال أشخاص من الموثوق بهم ليقفوا على حقيقة الأمر وعلى من وراء الفتنة، وجاء الرسل وقالوا إن هذه البلاد لا فتنة فيها ولا ثورة وإنما هي إشاعات كاذبة، فاستدعى الخليفة ﷺ ولاة الأقاليم فاتفقوا جميعا على أن التسامح الزائد واللين المفرط من الخليفة شجع أولئك الذين تآمروا على قتل الفاروق ﷺ فكثرت اتصالاتهم وأتباعهم وأحدثوا هذه الإشاعات وأنه لابد من أخذهم بالشدة كما كان يفعل عمر بن الخطاب ﷺ.

ولقد انتهى قرار الخليفة الراشد عثمان ﷺ أنه لا شدة إلا في حدود الله، ولا قتل إلا في الكفر الصريح، ثم قال: «إن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها،كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها»[4].

وهكذا كانت سياسته الداخلية، التسامح والعفو والعدل بين الرعية والمساواة بينهم حكاما ومحكومين، والصفح إلا عند الكفر البواح أو ارتكاب الجرائم الكبيرة وهي الحدود.

---

(1) البداية والنهاية، 7/ 239.
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد، 3/ 59.
(3) البداية والنهاية، 7/ 244.
(4) تاريخ الطبري 3/ 379-380.

ج- سياسته الخارجية:

لقد أغرى اغتيال الفاروق عمر ﷺ أعداء الإسلام في بلاد الفرس والروم إلى الطمع في استرداد ملكهم، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط في العاصمة التي يقيم فيها مدينة (فرغانة) عاصمة سمرقند، ذلك لأن جيوش المسلمين عندما انتصرت عليه لم تقتله ولم تأسره وتركته يقيم في هذا الإقليم.

أما زعماء الروم فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، وبدءوا في البحث في الوسائل التي تمكنهم من استرداد ملكهم وكان بقايا جيوش الروم في مصر قد تحصنوا بالإسكندرية في الخلافة العمرية، وبدءوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فقرروا نقض الصلح واستعانوا بقوات الروم البحرية، فأمدوهم بثلاثمائة سفينة تحمل الرجال والسلاح، ولقد واجه الخليفة عثمان ﷺ كل ذلك بسياسة تتسم بالحزم والعزم وتمثلت في الخطة الآتية:

- إخضاع المتمردين من الروم والفرس وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد.
- استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم.
- إقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية.
- إنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار جيش المسلمين إلى ذلك.

كانت معسكرات الإسلام في خلافة عثمان بن عفان ﷺ هي عواصم أقطاره الكبرى، فمعسكر العراق الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام في دمشق بعد أن خلص الشام كله لمعاوية بن أبي سفيان ومعسكر مصر الفسطاط، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات، ونشر الإسلام.

وزادت الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان ﷺ وانتقلت من الفتوحات البرية إلى الفتوحات البحرية، بعد إنشائه الأسطول الإسلامي، وأعيد فتح خراسان وأرمينيا وأذربيجان بعد انتقاضها، وفتحت الري وهمذان وطبرستان وجرجان واكتمل فتح

إيران، ووصلت فتوحاته إلى بلاد السند في شبه القارة الهندية، وإفريقية (تونس)، وأرض السودان...

وعلى جبهة الروم أنشأ معاوية ﷺ نظام الصوائف والشواتي لمتابعة غزو الروم. وفي سنة 27هـ بلغ القسطنطينية وحاصرها، وأنشأ في عكا دارا لصناعة السفن، وفيها تم أول أسطول عربي وكان باكورة عمله فتح على جزيرتي قبرص وأرواد، وبه أُبيد الأسطول البيزنطي في وقعة (ذات الصواري) سنة 34هـ، وأصبح شرق البحر المتوسط بعدها بحرا تحت سيطرة المسلمين.

3- أعماله ومنجزاته:

أ- جمع القرآن في مصحف واحد وحرف واحد (٣٥هـ):

بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان ﷺ وتفرق القراء في الأمصار، مما جعل الشك يتسرب لبعض حديثي العهد بالإسلام ممن لم يدرك رسول الله ﷺ، فأمر الخليفة عثمان بجمع الناس على مصحف واحد وحرف واحد من الأحرف السبعة، ونسخ المصاحف وبعث بها إلى الأمصار، حتى لا تتفرق الأمة وتختلف اختلاف اليهود والنصارى، وتلقت الأمة ذلك بالطاعة وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى.

عن أنس بن مالك ﷺ: أن حذيفة بن اليمان ﷺ قدم على عثمان ﷺ وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى

حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1].

وبهذا قطع ذو النورين عثمان ﷺ دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحصن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر الأزمان والعصور.

وعليه، فإن الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، هو أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية.

فالباعث لدى الصديق ﷺ لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حيث استحر القتل بالقراء.

والباعث لدى عثمان كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطأ بعضهم بعضا.

وجمع الصديق ﷺ كان نقلا لما كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب. وجمعا في مصحف واحد مرتب الآيات والسور. مقتصرا على مالم تُنسخ تلاوته، مشتملا على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وجمع عثمان ﷺ للقرآن كان نسخا على حرف قريش من الأحرف السبعة لكونه نزل بلغتهم، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد. وحرف واحد يقرأون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى.

ج- توسعة المسجدين النبوي والحرام:

لما تولى ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ زاد في المسجد النبوي زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج، وجعل أبوابه ستة كما كانت في خلافة عمر ﷺ. وجعل ﷺ طول المسجد مائة وستين ذراعا وعرضه مائة وخمسين. وكان أول عمله في شهر ربيع الأول من عام 29هـ وفرغ منه حين دخل العام لهلال المحرم عام 30هـ، فكان عمله عشرة أشهر.

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ح4702.

أما توسعته المسجد الحرام، فقد ابتاع ﷺ منازل ووسعه بها، وبنى المسجد الحرام والأروقة فكان عثمان ﷺ أول من اتخذ للمسجد الأروقة، وكانت كسوة الكعبة في الجاهلية الأنطاع[1] والمغافر فكساها رسول الله ﷺ الثياب اليمانية، ثم كساها عمر وعثمان -رضي الله عنهما- القباطي[2]. وكان توسيعه للحرم عام 26هـ.

د- أوليات الخليفة عثمان بن عفان ﷺ:

هو أول من هاجر في الإسلام، وأول من هاجر بأهله، وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة، أول من رزق المؤذنين، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأول من ولي الخلافة في حياة أمه، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من زاد النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء، وأول من نخل له الدقيق، وأول من أقطع القطائع (الاقتطاعة طائفة من أرض الخراج، يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقا). وأول من حمى الحمى لنعم الصدقة، وأول من سمى العطية جائزة.

وهو أول من رخص في الغزو البحري وذلك لما ألح عليه معاوية في غزو البحر أذن له فيه وقال له: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، بل خيرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه». عند ذلك عقد معاوية لواء البحر لعبد الله بن قيس الحارثي، فانطلق أول أسطول إسلامي لفتح قبرص عام 28هـ تحت قيادة أمير البحر الأول: عبد الله بن قيس، وفتح المسلمون قبرص صلحا. وقد غزا الأسطول الإسلامي تحت قيادته خمسين غزاة، فلم يهزم في واحدة منها، ولم يغرق من جنده أحد، وكان سيدنا عثمان ﷺ بذلك أول من أجاز الغزو البحري.

4- أيام المحنة والابتلاء:

كانت خلافة سيدنا عثمان ﷺ اثني عشر عاما، وكانت خلافته فتحا وفوزا للمسلمين امتدت سطوتهم إلى بلاد النوبة في مصر واتصلت بحدود الهند حتى ضربت النقود

(1) الأنطاع: بسط من الأديم أي الجلد.
(2) القباطي: ثياب من كتان نسجت في مصر.

الإسلامية على ما قيل بهراة، وأنشئوا الأساطيل بعد أن لم يكن لهم سفينة واحدة في البحر، وغزوا الجزر وحاربوا في البحر، وزادت هيبتهم في نفوس الدول الأخرى، ولاسيما الروم، وفتح المسلمون شمالي أفريقية، وقتلوا آخر ملك للفرس، وغزوا الترك وواصلوا الفتوح حتى القوقاز مجتازين الفيافي والقفار والجبال وفتحوا جزيرة قبرص ورودس واستأذن معاوية بفتح القسطنطينية فأذن له فسار إليها ورجع عنها بعد أن حاصرها مدة.

تمت كل هذه الفتوح العظيمة بسرعة مدهشة لم يعهدها التاريخ من قبل بالرغم من الفتن الداخلية، والنقمة على عثمان ﷺ، وبالرغم من لين الخليفة وشدة حيائه لأن المسلمين كانوا يجاهدون في سبيل الله بقوة إيمانهم وقد ذاقوا حلاوة الفتح والنصر والغنائم فلم يكن يعوقهم عن الفتح عائق. وقد قامت هذه الفتوح على يد الولاة الذين ولاهم عثمان، أمثال: الوليد وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومعاوية بن أبي سفيان. فلا غرو إذا قلنا إن عهد عثمان كان عهد فوز للمسلمين، وكانت هذه الفتوح العظيمة سببا في اتساع الدنيا على الصحابة ﷺ. وكانت المدينة المنورة عامرة، كثيرة الخيرات والأموال والناس يجبى إليها خراج الممالك وهي دار الأمان وقبة الإسلام فبطر الناس بكثرة الأموال والخيل والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا . ثم أخذوا ينقمون على خليفتهم.

أ- السبئية اليهودية وإيقاظ الفتن:

خبت جذوة اليهود بعد الضربات التي تعرضوا لها في جزيرة العرب، بسبب خيانتهم ومكرهم ونقضهم للعهود والمواثيق التي كانت تربطهم برسول الله ﷺ، وبرغم الدسائس والمؤامرات التي ما فتئوا يحيكونها ضد الإسلام والمسلمين من وراء الكواليس، إلا أنهم لم ينجحوا في استعادة أمجادهم الغابرة.

ومنذ ذلك الحين، لم يسجل التاريخ لليهود أي نشاط ظاهر يذكر، لأن الدولة الإسلامية كانت قوية متماسكة، والمسلمون متراصون، وإن كانت لهم دسائس خفية، فالأفاعي لا تهدأ، والذئاب الماكرة الغدارة تنتظر أي فرصة سانحة لتبدأ عملها.

إن أول نشاط ظهر للعيان بعد طرد اليهود من جزيرة العرب، اتسم بالتنظيم والتخطيط، كان على يد اليهودي الماكر عبد الله بن سبأ، الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر والنفاق والضلال.

كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء. أسلم -ظاهرا- في خلافة عثمان ﷺ ثم راح ينتقل في الديار الإسلامية باثا ضلالاته وشبهاته، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فقال لهم: "إنه كان لكل نبي وصي وعلي وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ". ثم قال لهم بعد ذلك : "إن عثمان أخذها بغير حق . وهذا وصي رسول الله ﷺ. فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر". وبث الدعاة لنشر ضلالاته وإشاعاته، وكاتب عملاءه من أهل الهوى والفتنة في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويبطنون غير ما يظهرون.

وجند هؤلاء الأعداء لتحقيق أهدافهم، الموتورين والمنحرفين من الرعاع والسذج والبُلَهاء. والتفَّ حولَهم الحاقدون ممن أدبهم أو حدهم أو عزرهم الخليفة أو أحد ولاته.

وبذلك أفسد السبئيون في الأرض، وأفسدوا المسلمين، ومزقوا كلمتهم، وزعزعوا أخوتهم ووحدتهم، وهيجوا الناس على الولاة والأمراء...

وإنا لا ندري السبب الذي حمل ابن اليهودية على نشر هذه الدعاية ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ وتحزبه لعلي بن أبي طالب ﷺ، وإن الإنسان ليعجب من ارتحال هذا الرجل من مصر إلى مصر واحتماله المشقات واختلاقه المذاهب وحض الناس على بث الدعوة إلا إذا كان قد أراد بذلك هدم الإسلام وحدوث الفتن والثورات، ولو أن عثمان

ﷺ استعمل الشدة مع أمثال عبد الله بن سبأ وأدبهم لما اجترأوا على بث بذور الفتن، ولا قطع رأس الحية في أول وهلة، لكنه لان لهم فلم يخشوا بأسه.

وظل أعداء الإسلام الموتورون من اليهود والنصارى والمجوس يتآمرون على الإسلام والمسلمين، وينشرون الإشاعات الكاذبة ضد الخليفة والولاة، ويستثمرون الأخطاء التي تصدر عن بعضهم في تهييج العامة ضدهم، ويزيدون عليها الكثير من الافتراءات والتزويرات. وهم يهدفون من ذلك نشر الفوضى وتعميق الفرقة بين المسلمين وتمزيق صفهم ووحدتهم، وذلك لتغذية حنقهم وحقدهم على الإسلام الذي قضى على معتقداتهم الباطلة، وهدم نظام الحكم الإسلامي، الذي حطم قلاعهم ودولتهم، وقضى على جيوشهم.

واستمرت جهود ابن سبأ اليهودي وأعوانه من النصارى والمجوس والمنافقين، حيث بدأوا أعمالهم الشيطانية سنة ثلاثين، ونجحوا في آخر سنة 35هـ في قتل الخليفة عثمان ﷺ، واستمر إفسادهم طيلة خلافة علي ﷺ.

وكان نزول الخوارج السبئيين في المدينة وحصارهم لخليفة المسلمين عثمان بن عفان صهر رسول الله ﷺ وأحد المبشرين بالجنة في الثامن من ذي القعدة الحرام سنة 35هـ.

ولما كانت الجمعة الأولى من حصاره، صعد المنبر وحذرهم من إشاعاتهم وتزويرهم للكتب على لسان الصحابة ﷺ، فما كان من السبئيين إلا أن ثاروا في المسجد وحصبوا الصحابة والمسلمين الآخرين بالحجارة، وأخرجوهم من المسجد، وطردوهم وشتموهم، وحصبوا الخليفة عثمان ﷺ على المنبر بالحجارة، فسقط عن المنبر إلى أرض المسجد مغشيا عليه، وحمل وأدخل داره، وهو مريض مغمى عليه!

وشمر مجموعة من الصحابة لقتال السبئيين، لكن الخليفة ﷺ أمرهم بالكف عن القتال ووضع السلاح والعودة إلى بيوتهم فأطاعوه وهم مكرهين.

وفي يوم من الأيام أتى نفر من السبئيين المصريين عليا بن أبي طالب ﷺ، وعرضوا الأمر عليه وطلبوا منه أن يكون الخليفة، فصاح بهم وطردهم، وكان مما قاله لهم:"لقد

علم الصالحون أن جيش ذي خشب وذي مروة والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ، ارجعوا لا حفظكم الله ولا صحبكم.

وأتى نفر من السبئيين البصريين طلحة ﷺ، ففعل معهم كما فعل الإمام علي ﷺ. وأتى نفر من الكوفيين الزبير ﷺ، فقال لهم كما قال علي ﷺ أو كما قال طلحة ﷺ[1].

وقد أرسل المتمردون السبئيون الأشتر النخعي -مالك بن الحارث- إلى الخليفة بإحدى ثلاثة: أن يخلع نفسه من الخلافة ويجعل الأمر في الناس يختارون من يشاءون، أو يقتص من نفسه، أو يقتلوه. فرده عثمان على عقبيه، وأبى أن يخلع سربالا سربله الله إياه، وكيف يقتص من نفسه ولم يفعل ما يوجب القصاص، وكيف يقتلونه ولم يرتكب ما يوجب القتل.

واستشار عثمان ﷺ كبار الصحابة ﷺ في الأمر وكل أشار عليه برأيه، إلا عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- فلما قال له عثمان: إن القوم يقولون لي: اخلع نفسك أو نقتلك. قال له ابن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟ قال عثمان: لا. قال: هل يزيدون على أن يقتلون؟ قال عثمان: لا. قال: هل يملكون لك جنة أو نارا؟ قال عثمان: لا. قال ابن عمر: فلا تخلع قميص الله عنك، فتكون سنة من بعدك، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[2].

رضي الله عن عبد الله بن عمر، ما كان أبعدَ نظره، إنه لا يريد أن يسن عثمان سنة للخلفاء -وحاشا لعثمان أن يفعل- فلو تنازل عثمان لهؤلاء السبئيين الأنذال، وخلص نفسه، لصار الخلفاء ألعوبة وملهاة بأيدي الطامعين أو المغرضين، وبذلك تهتز صورة الخليفة، وتزول هيبته عند الناس.

ولقد سن عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشورة ابن عمر وغيره من الصحابة الكرام ﷺ، حيث صبر واحتسب، فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفك دماء المسلمين!!

ولله در حنظلة بن الربيع ﷺ القائل في أيام الفتنة:

---

(1) انظر: تاريخ الطبري، 3/ 387. والبداية والنهاية لابن كثير، 7/ 195.

(2) العواصم من القواصم، محمد بن عبد الله المعافري المالكي، ص137.

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافـــة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهـم ... ولاقوا بعــدها ذلا ذليـــلا
وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواءً كلُّهم ضلوا السبيلا[1]

وقد حصل ما توقعه حنظلة بفراسته الإيمانية، حيث إن فُرقة المسلمين وضعف الخلافة أو زوالها، يؤدي إلى ذل المسلمين وهوانهم وضلالهم.

وقد أدرك حنظلة بثاقب نظره، ونفاذ بصيرته، أن هدف السبئيين والمنافقين ليس هو شخص عثمان ﷺ، وإنما هدف شياطينهم هو نظام الحكم الإسلامي، فهم يريدون إزالة الخلافة، والقضاء عليها!!

وفي أواخر شهر ذي القعدة لم يتمكن عثمان ﷺ من الخروج للحج، وكان يحج كل سنة، أما في هذه السنة فإن السبئيين قد احتلوا المدينة، وحاصروا عثمان ﷺ في داره. ولابد من تعيين أمير للحج، ليحج بالناس، فاستدعى الخليفة عثمان ﷺ عبد الله بن عباس ﷺ، وكلفه أن يحج بالناس هذا الموسم.

ودخل شهر ذي الحجة والسبئيون الحاقدون محاصرون لعثمان، محتلون للمدينة، ومع هذا كان عثمان يصلي بهم وبغيرهم من المسلمين، وكانت هذه الأفاعي السبئية تصلي خلفه.

ولما رأى عثمان أن هؤلاء السبئيين لا يريدون مغادرة المدينة، كتب كتابا إلى المسلمين في الأمصار، في الشام ومصر والكوفة والبصرة يطلب المدد والقدوم إلى المدينة، ليطردوا عنها السبئيين.

ولما وصل الكتاب المسلمين في الأمصار، تأثروا به، وعجبوا من جرأة الخوارج المشاغبين، وهبوا لنجدة خليفتهم، من كل الأمصار لإنقاذه من الحصار.

ولما علم السبئيون في المدينة بمسير جيوش النجدة من الشام ومصر والكوفة والبصرة وتوجه الحجاج إلى المدينة بعد انتهاء موسم الحج، خافوا على أنفسهم، فعجلوا بتنفيذ مؤامرتهم، وقاموا بقتل عثمان ﷺ.

(1) تاريخ الطبري، 3/ 417.

وقبل أيام من قتل الخوارج لعثمان ﷺ، مر بهم الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ﷺ -وكان قبل إسلامه كبير أحبار اليهود- ووقف على باب دار عثمان، وخاطب السبئيين المحاصرين له قائلا:

«يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركنها، فقالوا: يا ابن اليهودية وما أنت وهذا»[1].

وبقي عثمان ﷺ داخل الدار، مع بعض أهله وخدمه، يحاصره ثلاثة آلاف من السبئيين الأشرار، وأخيرا جاء يوم الجمعة 18 من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين. وقد مضى على الحصار أربعون يوما كاملة. أصبح عثمان يوم الجمعة صائما، وهو يوقن أنه قد دنا أجله، وأن القوم قاتلوه، فأقبل على قراءة القرآن، ليلقى الله صائما قارئا، دخل عليه السبئيون -الذين كتب الله عليهم الشقاوة- الدار، وعاثوا فيها فسادا، وأسفكوا الدم الزكي -قاتلهم الله- ظلما من عند أنفسهم، في الشهر الحرام، في البلد الحرام، فكان أول قطرة من دمه الشريف النقي الزكي سقطت على قوله تبارك وتعالى: ﴿... فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

لم يتوقع أحد من الصحابة ﷺ أن يقتل صهر رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ﷺ. أما السبطين الحسن والحسين رضي الله عنهما ومن معهما فقد كانوا يحرسون بابه، ولكن القتلة تسوروا عليه من دار مجاورة لداره. لقد قتلوه قتلة شنيعة ترتعد منها الفرائص، ومثلوا به وهو يتلو القرآن، فضربه بعضهم بحديدة وبعضهم ضربه بمشقص، وطعنه آخر بتسع طعنات، وكسر الآخر ضلعا من أضلاعه. ولم يكتفوا بذلك بل تعدوا على زوجته المخلصة بالسيف وببذيء الكلام، وأرادوا قطع رأسه بعد أن فارق الحياة، ونهبوا أمتعة المنزل وما في بيت المال ومنعوا عنه الماء أثناء الحصار، حتى غضب علي وهالته قسوتهم فقال لهم: "أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي".

(1) تاريخ الطبري، 3/ 421.

لا أحد يبرز قتل عثمان ﷺ والتمثيل به . ولم يجترئ عليه أحد من كبار الصحابة ﷺ حتى المخالفين له في الرأي لأنهم كانوا يجلونه ويوقرونه لمكانه من رسول الله ﷺ، وأياديه البيضاء في سبيل الإسلام وحسن أخلاقه وعواطفه وسائر فضائله التي لا ينكرها أحد.

لا شك أن هؤلاء القتلة مجرمون غلاظ الأكباد قساة القلوب. فلم يراعوا حرمة صحبته لرسول الله ﷺ وصهره ومنزلته في الإسلام وفضائله العظيمة ومناقبه النبيلة وخدماته الجليلة وبذل الأموال الطائلة لنصرة الإسلام ورفع رايته، ولم يخجلوا من التهجم على رجل كريم مفضال حيي سخي لين سهل رحيم قال عنه رسول الله ﷺ: «إن الملائكة تستحي منه». رجل كف يده ونهى عن سفك دماء المسلمين وهو محاصر أشد الحصار مهدد بالقتل، وكان مثال الصالحين والقراء للقرآن وعاش محبا للناس لا يميل إلى الشدة والعنف، لقد فتكوا به وهو قابع في بيته يتعبد بتلاوة القرآن، ونهى أصحابه حتى عن الدفاع عنه. فأي قلب لا يتفطر وأي دمع لا ينهمر وأي فؤاد لا يذوب كمدا وأسى على قتل الخليفة الصالح العادل الراشد ﷺ من غير أن يرتكب إثما يوجب القتل.

قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين قتل عثمان ﷺ: «تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قتلتموه». وفي رواية: «ثم قربتموه ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش؟» فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه، فقالت: «لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا»

قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها[1].

لقد كان تزوير الكتب على كبار الصحابة ﷺ من أخبث الوسائل الشيطانية، التي سلكها اليهود السبئيون للتأثير على الرعاع وتهييجهم على أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، زوروا الكتب على لسان أم المؤمنين عائشة وعلي وطلحة والزبير ﷺ، كما زوروا الكتب على لسان الخليفة عثمان ﷺ نفسه، وكان لهذه الكتب المزورة بالغ الأثر في استشراء الفتنة التي شوهت وجه التاريخ الإسلامي، لتنتهي إلى ما انتهت إليه من مواقف مفجعة.

(1) البداية والنهاية، 7/ 218. وهذا إسناده صحيح كما قال ابن كثير.

إن ما جرى يوم الدار من فتنة عمياء تمخض عنها قتل الخليفة المفترى عليه ﷺ، كان محصلة مؤامرات مدروسة بشكل جيد، وتخطيط مبرمج، وجهود حثيثة اضطلع بها السبئيون الذين كانوا يسعون للقضاء على الدولة الإسلامية الفتية، عن طريق بث الفتن والضلالات والأباطيل والشبهات بين صفوف المسلمين، لتتربع اليهودية الموتورة على أنقاضها من جديد.

فما جرى في تلك المرحلة المشئومة من فتن وأحداث، لا يقدر على تحقيقه إلا العقلية اليهودية الماكرة، ولم ينته الدور اليهودي عند قتل الخليفة، حيث ظل اليهود-خاصة أولئك الذي يتسترون بالإسلام- يكيدون للإسلام والمسلمين لتحقيق مآربهم وأهدافهم رغم تخلصهم من شخص الخليفة، فعاثوا في المدينة الفساد، وكانوا أصحاب السلطة فيها طيلة أيام، كما استطالوا على بيت مال المسلمين فنهبوه.

ولم يتوقف الدور اليهودي عند هذا الحد، حيث استمرت عمليات التشويه والتضليل، يكتوي المسلمون بنارها حتى اليوم.

فالحادث الذي تعرض له أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وما تبعه من آثار ومطاعن استهدفت الخليفة نفسه من جهة، وصحابة رسول الله ﷺ، من جهة أخرى، يؤكد بأن اليهود من السبئية قد استأنفوا حملتهم لتشويه سمعة الصحابة، وزعزعة مكانتهم في نفوس المسلمين، بما أثاروه حولهم من شبهات، وخاصة تلك الدعوى الكاذبة بأنهم هم الذين استباحوا دمه، لاقترافه أعمالا تتنافى مع الشريعة الإسلامية على حد زعمهم وكذبهم.

علما بأن الصحابة ﷺ لم يشاركوا قط في قتل الخليفة، ولم ينقموا عليه كما يزعم أهل الباطل، وعرضوا عليه النصرة وفيهم الإمام علي ﷺ، وأبناؤه وجم غفير من خيرة الصحابة وأبنائهم ﷺ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية-رحمه الله-:"فإن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، ولا قتل ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين من أوباش القبائل وأهل الفتن"[1].

(1) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، 2/ 186.

ب- في ضيافة رسول الله ﷺ في الجنة:

عن عبد الله بن سلام أنه قال: ««أتيت عثمان وهو محصور أسلم عليه فقال: مرحبا بأخي مرحبا بأخي. أفلا أحدثك ما رأيت الليلة في المنام؟ فقال: بلى. قال: رأيت رسول الله ﷺ في هذه الخوخة -وإذا خوخة في البيت-. فقال: أحصروك؟ فقلت: نعم . فقال: عطشوك؟ فقلت: نعم. فأدلى لي دلوا من ماء فشربت حتى رويت فإني لأجد بردا بين كتفي وبين بدني. فقال: إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا . قال : فاخترت أن أفطر عندهم . قال: فقتل عثمان في ذلك اليوم".

وعن أبي سعيد مولى عثمان أن عثمان أعتق عشرين مملوكا، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام. قال: "إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة وأبا بكر وعمر فقالوا لي: صبرا فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه".

عن ابن عمر أن عثمان أصبح يحدث الناس. قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام. قال: يا عثمان أفطر عندنا غدا، فأصبح صائما وقتل من يومه"»[1].

وقد ضحى بنفسه وقُتل شهيدًا مظلومًا، وكان باستطاعته أن يستعين بالصحابة ﷺ للدِّفاع عنه، ولكنه لم يرغب أن تُراق قطرةُ دم من أجْله، وقد أخبر سيدنا رسول الله ﷺ بقتله ظلمًا في حياته، وكانت هذه علامةً من علامات النبوة، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : «ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: "يقتل فيها هذا مظلوما" لعثمان»[2]. وعن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «يا عثمان، إنه لعل الله يقمصك قميصا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»[3].

استشهد سيدنا عثمان بن عفان ﷺ يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35 من الهجرة بعد العصر، وكان يومئذ صائما. على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا واثنين وعشرين

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، 1/ 190. مسند أحمد بن حنبل، 1/ 72.
(2) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ، ح3708. قال الألباني في صحيح الترمذي: حسن الإسناد.
(3) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ، ح3705. قال الألباني: حديث صحيح.

يوما من مقتل عمر بن الخطاب ﷺ وعلى رأس خمس وعشرين من متوفى رسول الله ﷺ[1].
وكانت مدة خلافته ﷺ اثني عشر عاما إلا اثني عشر يوما.

«كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تم بين العصر والأصيل.

وإذن، فأمام روحه وقت كاف لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار في الجنة، عند الغروب.

فلتعرج إلى بارئها.. ولتذهب إلى ضيافته في حُبور عظيم..

إن رسول الله ﷺ هناك ينتظر على شوق.. وينتظر معه صاحباه: الصِّدِّيق، والفاروق..

لقد تعب عثمان طويلا، مضت اثنتي عشرة سنة قضاها في الخلافة حاملا أعباءها ولواءها..

ولقد كان همه ألا تسقط الراية من يمينه.. وألا يلقى الله حين يلقاه، وعلى يديه قطرة واحدة من دماء مسلمة..

أوَ قد ظفر بمبتغاه..؟؟ أجل.. كان الظفر حظه والفوز نصيبه.. فليبق للأرض جسده، مثخنا داميا.. أو سليما معافى.. ذلك أمر لا يعنيه.. ما دامت روحه الطاهرة قد فازت بمستقبلها عند الله.."[2].

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، 7/ 212. تاريخ الطبري، 3/ 442.
(2) خلفاء الرسول ﷺ، خالد محمد خالد، ص224.

المحور الخامس

الإمام علي بن أبي طالب ﷺ

أولا: ترجمة موجزة لسيرته:

1- ميلاده وإسلامه:

أ- ولادته ونسبه:

هو علي بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهو ابن عم رسول الله ﷺ ويلتقي معه في جده الأول عبد المطلب بن هاشم، وولده أبو طالب شقيق عبد الله والد النبي ﷺ، وكان اسم عليٍّ عند مولده أسد، سمته بذلك أمه -رضي الله عنها- باسم أبيها أسد بن هاشم.

كنيته: أبو الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر الحسن وهو من ولد مولاتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ويكنى أيضًا بأبي تراب، كنية كناه بها النبي ﷺ، وكان يفرح إذا نودي بها. وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ جاء بيت فاطمة -رضي الله عنها- فلم يجد عليًا في البيت، فقال: «أين ابن عمك؟» قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقِل عندي، فقال ﷺ لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع وقد سقط رداءه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قم أبا تراب قم أبا تراب»[1].

وهو والد السبطين، ووالده أبو طالب الحدب المدافع عن رسول الله ﷺ صاحب المواقف الخالدة التي أرعبت أفئدة ملأ قريش، وروعت أمنهم، وأفقدتهم استقرارهم، وأذلت استكبارهم..

ولد علي ﷺ في جوف الكعبة قبل البعثة بعشر سنين.

(1) صحيح البخاري، كتاب المساجد، باب نوم الرجال في المسجد، ح430.

كان ربعة من الرجال إلى القصر ما هو، أدعج العينين، حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر حسنًا، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكفين عَتَدًا أغيد، كأن عنقه إبريق فضة، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، كبير اللحية، لمنكبه مشاش كمشاش السبع الضارى، لا يتبين عضده من ساعده، قد أدمجت دمجًا، إذا مسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد وإذا مشى للحرب هرول، ثابت الجنان، قويًّا شجاعًا[1].

ب- إسلامه:

كان من نعمة الله عز وجل على عليّ بن أبي طالب ﷺ وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه - وكان من أيسر بني هاشم-: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه عياله، آخذ من بيته واحدًا وتأخذ واحدًا، فنكفيهما عنه، فقال العباس: نعم.. فانطلق حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا ﷺ فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب ﷺ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا، فاتبعه علي، فأقر به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه[2].

ونلاحظ أن النبي ﷺ أراد أن يرد الجميل والمعروف لعمه أبي طالب الذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، فكان هذا من أكبر نعم الله على عليّ ﷺ، إذ رباه وأدبه الذي أدبه الله تعالى وحفظه ورعاه وعصمه وصنعه على عينه، والذي كان خلقه القرآن، فانعكس هذا الخلق القرآني على عليّ، وكفى بالتربية النبوية تربية لعلي ﷺ، فقد نشأ في بيت الإسلام وتعرف إلى أسراره في مرحلة مبكرة من حياته، وذلك قبل أن تتخطى الدعوة حدود البيت وتنطلق إلى البحث عن أنصار يشدون أزرها وينطلقون بها في دنيا الناس، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، فكان علي ﷺ أول من أسلم من الصبيان.

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، 3/ 1123.
(2) سيرة ابن هشام، 1/ 245.

لقد اهتم علي ﷺ منذ أسلم بحفظ القرآن الكريم وفهمه وتأمله، وظل ملازمًا لرسول الله ﷺ يتلقى عنه ما أنزل عليه حتى تم له حفظ جميع آياته وسوره، لقد حصل ﷺ ببركة صحبته المباشرة لرسول الله ﷺ وتربيته على يديه خيرًا كثيرًا، وأصبح من الخلفاء الراشدين فيما بعد، فقد حرص على التبحر في الهدي النبوي الحكيم في غزواته وسلمه، وأصبح له ﷺ علم واسع ومعرفة غزيرة بالسنة النبوية المطهرة، فقد استمد من رسول الله ﷺ علمًا وتربية ومعرفة بمقاصد هذا الدين العظيم، وقد جمع بين رسول الله ﷺ وبين علي حب شديد، والحب عامل مهم في تهيئة مناخ علمي ممتاز بين المعلم وتلميذه، يأتي بخير النتائج العلمية والتربوية، لما له من عطاء متجدد، وعلي ﷺ قد أحب رسول الله ﷺ حبًا جمًا، وتعلق فؤاده بشخصه العظيم الكريم.

شارك ﷺ مع رسول الله ﷺ، في الكثير من المشاهد، وخلفه رسول الله ﷺ يوم الهجرة إلى المدينة يرد الودائع إلى أهلها ويؤدي الأمانات لأصحابها في مكة، ونام في فراش رسول الله ﷺ يوم اجتمع المشركون حول بيت رسول الله ﷺ ليغتالوه، ففدى روح رسول الله ﷺ كما فداه أبو بكر ﷺ في الغار. فكل منهما قدم روحه نثارا في سبيل حفظ روح الرسول الأعظم ﷺ.

ظل الإمام علي ﷺ ملازما لرسول الله ﷺ حتى انتقل الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وبعدها بايع خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ ولازمه ولم يفارقه في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين حتى توفي الصديق ﷺ، فعن محمد ابن الحنفية قال: "قلت لأبي -أي علي-: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين"[1].

أما في عهد الفاروق ﷺ فكان الإمام عضوًا بارزًا في مجلس الشورى، بل كان هو المستشار الأول في الأمور الكبيرة والصغيرة، فقد كان عمر ﷺ يعرف لعلي فضله، وفقهه، وحكمته، وكان رأيه فيه حسنًا، فقد ثبت قوله فيه: "أقضانا علي"[2]، كما كان عمر ﷺ يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن[3].

(1) صحيح البخاري، بكتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا"، ح3468.
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد، 2/ 339.
(3) الطبقات الكبرى لابن سعد، 2/ 339. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، 4/ 568.

وظل الإمام علي ﷺ طيلة حياة عمر مستشارًا ناصحًا لأمير المؤمنين عمر ﷺ، محبًا له خائفًا عليه، وكان عمر ﷺ يحبه وكانت بينهما مودة ومحبة وثقة متبادلة، ومع ذلك يأبى الأقزام من أعداء الإسلام إلا أن يزوروا التاريخ ويشوهوا الحقائق، ويقصوا بعض الروايات التي تناسب أمزجتهم ومشاربهم ليصوروا لنا عصر الخلفاء الراشدين ﷺ عصر المؤامرات والصراع على السلطة وتربص كل واحد منهم بالآخر الدوائر لينقض عليه، وكل أمورهم كانت تجري من وراء الكواليس.

وهم غافلون أن عليا كان له أبناء سماهم أبا بكر وعمر وعثمان... وزوج ابنته أم كلثوم من فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- لعمر ﷺ؛ ذلك أن عمر ﷺ كان يُكن لأهل بيت النبي ﷺ محبة خاصة لا يكنها لغيرهم لقرابتهم من النبي ﷺ.

أما في خلافة ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ فكان الإمام علي ﷺ في مجلس شورى الخليفة الراشد عثمان ﷺ، وكان صاحب إقامة الحدود.

والجدير بالذكر هنا أن هناك أباطيل شيعية رافضية دست في التاريخ الإسلامي في قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلقفها المستشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين المحدثين، ولم يمحصوا الروايات ويحققوا في سندها ومتنها، فانتشرت بين المسلمين، وقد تضمنت الروايات الشيعية الرافضية عدة أمور مدسوسة ليس لها دليل من الصحة، كاتهامهم الصحابة ﷺ بالمحاباة في أمر المسلمين، وعدم رضا علي بأن يقوم عبد الرحمن باختيار الخليفة، وصوروا تشاور أصحاب النبي ﷺ في تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائري وأن الناس قد انقسموا إلى حزبين؛ حزب أموي وحزب هاشمي، وهو تصور موهوم واستنتاج مردود لا دليل عليه، إذ ليس نابعًا من ذلك الجو الذي كان يعيشه أصحاب النبي ﷺ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح، فهي مردودة على قائليها وناقليها.

إن الإمام عليًا ﷺ لا يحفظ عنه الصحابة ﷺ ومن تبعهم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلا محبة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ في حياتهم، وفي خلافتهم وبعد وفاتهم.

2- بعض فضائله ومناقبه:

قال الإمام علي ﷺ: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت! إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا طلقا». قال ﷺ: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم نهار، وفي سهل أم في جبل»[1].

ولما كان ﷺ بالعراق وقد مات أكثر علماء الصحابة ﷺ، كان حريصا على تعليم الناس القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف، وإرشادهم للحق، فقد كان أعلم أهل زمانه.

وفيه نزل قوله تعالى يوم بدر الكبرى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج].

ويوم قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ وجادلهم ﷺ في عيسى ابن مريم-عليهما السلام-، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى أمه الطاهرة، فأجابته، وكذبهم في أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ودعاهم إلى الإسلام، فأبوها فدعاهم إلى المباهلة، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: ولما نزلت: ﴿ ... فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران] دعا رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة، وحسنًا وحسينًا ﷺ فقال: اللهم هؤلاء أهلي[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم و علي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب»[3].

وعن سعد ابن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[4].

وعن زر ﷺ قال: قال على: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلَيَّ: «أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[5].

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 2/ 338.
(2) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، ح2404.
(3) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، 137/ 3.
(4) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، ح2404.
(5) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار ﷺ وعلي ﷺ من الإيمان، ح78.

وعن سعيد بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، ولو شئت أن أسمي العاشر» قال: فقالوا: من هو؟ فسكت. قال: فقالوا: من هو ؟ فقال: «هو سعيد بن زيد»[1].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سب عليًا فقد سبني»[2].

وفي غزوة خيبر قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الرَّاية غدًا رجلاً يُفتح على يديه، يُحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه»، فبات الناس ليلتهم أيُّهم يُعطى، فغدوا كلُّهم يرجوه، فقال ﷺ: «أين علي؟»، فقيل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه، ودعا له فَبَرأ كأنْ لم يكن به وجعٌ، فأعطاه، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مِثلَنا، فقال: «انفذ على رِسلك، حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرْهم بما يجب عليهم، فوالله لأنْ يهديَ الله بك رجلاً خيرٌ لك مِن أن يكونَ لك حُمْر النَّعم»[3]. ففتح الله على يديه ﷺ.

وفضائل أمير المؤمنين علي ﷺ كثيرة لا تحصى،كان ﷺ من الشجاعة بالمحل الأسنى، ومن التقوى في عليائها، ومن العلم في قممه السامقة.

ثانيا: علي بن أبي طالب ﷺ رابع الخلفاء الراشدين:

1 - بيعة علي المرتضى ﷺ:

تمت بيعة علي بالخلافة بطريقة الاختيار وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق، ومن أمصار مختلفة، وقبائل متباينة لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدنيا، فبعد أن قتلوه ﷺ ظلمًا وزورًا وعدوانًا، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين. قام كل

(1) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ح4649. قال الألباني: صحيح.
(2) مسند أحمد بن حنبل، 6/ 323. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح الإسناد.
(3) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أسلم على يديه رجل، ح2847.

من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ بمبايعة علي ﷺ بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفسه أحد بعد عثمان ﷺ ولم يكن أبو السبطين ﷺ، حريصًا عليها، ولذلك لم يقبلها إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة، وخوفًا من ازدياد الفتن وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التي أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه، لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى.

أما عن كيفية اختيار خليفة للمسلمين، فيروي ابنه محمد ابن الحنفية ﷺ قال: كنت مع علي رحمه الله وعثمان محاصر قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام علي رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفًا عليه فقال: خلَّ لا أم لك، قال: فأتى علي الدار، وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها فأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن هذا قد قتل، ولابد للناس من خليفة ولا نعلم أحدًا أحق بها منك، فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزيرًا خير مني لكم أميرًا، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سرًا، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس"[1]. وفي رواية: «فلما دخل المسجد جاء المهاجرون والأنصار فبايعوا وبايع الناس»[2].

إذن تمت مبايعته بإجماع الصحابة من المهاجرين والأنصار والناس عامة في المدينة، وهم الذين قصدوا عليًا ﷺ وطلبوا منه أن يوافق على البيعة، وألحوا عليه حتى قبلها، وليس للغوغاء وقتلة عثمان ﷺ كما في بعض الروايات الضعيفة والموضوعة.

كان الإمام علي ﷺ زاهدا في الخلافة ولم يطلبها ولم يطمع فيها، واعتزاله في بيته للناس خير شاهد على هذا، وكان ﷺ يومئذ أحق الناس بالخلافة، لذلك سارع إليه أهل الشورى- أهل الحل والعقد- وألحوا عليه إلحاحا ليبايعوه خليفة للمسلمين.

(1) السنة، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال، 2/ 416.
(2) السنة، أبو بكر أحمد بن محمد الخلال، 2/ 417.

أما الشبهة التي أدخلها بعضهم على بيعة الإمام علي ﷺ، كون الخوارج الذين حاصروا عثمان ﷺ، وشارك بعضهم في قتله، كانوا في المدينة، وأنهم أول من بدءوا بالبيعة وأن طلحة والزبير -رضي الله عنهما- بايعا مكرهين، وهذه أقاويل المؤرخين، لا تقوم على أساس وليس لها سند صحيح، والصحيح أنه لم يجد الناس بعد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ كالرابع قدرًا وعلما وتقى ودينًا، وسبقًا وجهادًا، فعزم عليه المهاجرون والأنصار، ورأى ذلك فرضًا عليه، فانقاد إليه، ولولا الإسراع بعقد البيعة للإمام علي ﷺ، لأدى ذلك إلى فتن واختلافات في جميع البلاد الإسلامية، فكان من مصلحة المسلمين أن يقبل علي البيعة مهما كانت الظروف المحيطة بها، ولم يتخلف عن علي أحد من الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وقد خلط الناس بين تخلف الصحابة ﷺ عن المسير معه إلى البصرة وبين البيعة؛ أما البيعة فلم يتخلف أحد عنها، وأما المسير معه فتخلفوا عنه لأنها كانت مسألة اجتهادية، كما أن عليًا ﷺ لم يلزمهم بالخروج معه.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري-رحمه الله-: "ونثبت إمامة علي بعد عثمان ﷺ، بعقد من عقد له من الصحابة من أهل الحل والعقد لأنه لم يدع أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجتمع على فضله وعدله، وأن امتناعه عن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقًا لعلمه أن ذلك وقت قيامه، ثم لما صار الأمر إليه أظهر وأعلن، ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد، كما مضى من قبله من الخلفاء وأئمة العدل على السداد والرشاد؛ متبعين لكتاب ربهم وسنة نبيهم هؤلاء الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم ﷺ"[1].

أما ما قيل في قتال معاوية ﷺ له منازعة له على الخلافة فغير صحيح؛ ذلك أن معاوية لم يقاتل عليًا ﷺ على الخلافة ولم ينكر إمامته ولا ينازعه في الخلافة، بل كان يقر له بذلك، وإنما كان يقاتل من أجل إقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل الخليفة عثمان ﷺ مع ظنه أنه مصيب في اجتهاده ولكنه كان مخطئا في ذلك[2]، وقد ثبت هذا بالروايات الصحيحة فعن أبي مسلم الخولانى أنه جاء وأناس معه إلى معاوية وقالوا: «أنت تنازع عليًا، هل أنت مثله؟ فقال: لا والله، إني لأعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون

(1) الإبانة عن أصول الديانة، ص251.

(2) انظر: لمعة الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة، إمام الحرمين الجويني، ص115.

أن عثمان قُتل مظلومًا، وأنا ابن عمه والطالب بدمه فأتوه فقولوا له: فليدفع إليَّ قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه فلم يدفعهم إليه»[1]. وفي رواية أخرى قال معاوية: «أقاتله على دم عثمان وإنه آوى قتلته، فاذهبا إليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام»[2].

وكانت مبايعته ﷺ يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرم حرما غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ... ٢٦﴾ [الأنفال]»[3].

ولما كانت بيعة علي ﷺ جاءت بعد فتنة عمياء ذهب ضحيتها خليفة المسلمين السابق، فقد دعا المسلمين إلى الخير ونبذ الشرّ، وبين لهم أن حرمة المسلمين فوق كل الحرمات، فلا يجوز أذاه في حال من الأحوال، ثم ذكرهم بالموت والآخرة وحثهم على التقوى والطاعة والعمل الصالح.

2- أهم أعماله ومنجزاته وفتوحاته:

أ- المؤسسة المالية: في خلافة علي بن أبي طالب ﷺ لم يحدث تغيير يذكر في السياسة المالية للدولة الإسلامية، إلا أنه ﷺ رجع إلى ما كان عليه أبو بكر الصديق ﷺ في التسوية في العطاء، فلم يفضل أحدًا، فأعطى الموالي كما أعطى السادة، وقد كان لولاة البلدان

(1) فتح الباري لابن حجر، 13/ 86.
(2) البداية والنهاية، 7/ 288.
(3) البداية والنهاية، 7/ 254. تاريخ الطبري، 3/ 457.

صلاحيات عامة في المصروفات من ولاياتهم وبيوت أموالها، فكانوا ينفقون من الأموال التي لديهم في الأوجه الشرعية في مصالح الولاية، ويستخدمونها في شئون الجهاد والفتوح من إعداد للسلاح والدواب ومرتبات الجند وغير ذلك من أوجه الجهاد، ونفقات العمال، والموظفين في الولاية، بالإضافة إلى ما كانوا يقومون به من إصلاحات كبناء الجسور وحفر القنوات والعيون والأنهار، وكان ذلك يستدعي الصرف مما يجبونه من ولاياتهم.

ب- **المؤسسة القضائية**: ولي الخلافة أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ، واقترنت توليته التي نجمت عن قتل عثمان ﷺ وما تبعها من أحداث شقت صف المسلمين وفرقت كلمتهم، وأصبحت مواجهة تلك الأحداث لرأب الصدع شغله الشاغل، ولم يكن هذا الصراع الدامي في عهد علي ﷺ مانعًا له من أن يعطي للقضاء نصيبًا من الاهتمام به وتنظيمه، كإبقائه على أسلوب القضاء السابق في عهد الخلفاء الثلاثة قبله، وعدم نقضه الأحكام الصادرة في عهدهم، إضافة إلى أنه يشترط في القاضي ما يشترط فيمن تكون له ولاية عامة على المسلمين من العقل والبلوغ والإسلام، والعفة عما في أيدي الناس، والحلم، والصبر على كلام الناس، والتأني وعدم الغضب، والعلم بأحكام الشريعة، ومواطن التدرج فيها، وعلى القاضي أن يستشير ذوي العلم، والرأي لئلا يفلت منه حق.

ت-**الفتوحات الإسلامية**: في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ توقفت الفتوحات الإسلامية، ما خلا توغل جرى في جبهة السند بقيادة الحارث بن مرة العبدي سنة 39هـ، وذلك بسبب الفتن التي ثارت في عهده وانتهت باستشهاده.

3- استشراء الفتنة ومعركتا الجمل وصفين:

أ- معركة الجمل:

كانت السيدة أم المؤمنين عائشة والزبير وطلحة ﷺ ومن معهم يسعون لإيجاد رأي إسلامي عام في مواجهة الطغمة السبئية اليهودية التي قتلت خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ، وأصبحت ذات شوكة لا يستهان بها، وذلك من خلال تعريف المسلمين بما أتى هؤلاء السبئيون والغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل، ومن ظاهرهم من الأعراب والعبيد،

فلقد بات واضحًا عند الصحابة ﷺ من الفريق الذي كان يرى رأي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن الغوغاء والسبئيين لهم وجود في جيش علي ﷺ، وأنه لأجل ذلك فإن عليًا ﷺ يصعب عليه مواجهتهم، خشية منه على أهل المدينة، ومن ثم فإنه ينبغي عليهم أن يحاولوا السعي لإفهام المسلمين، وتقوية الجانب المطالب بإقامة الحدود، لتتم إقامتها بأقل الخسائر في دماء الأبرياء، وهو هدف لا نشك أن عليًا ﷺ كان يسعى إليه، ويحاوله.

قال الإمام ابن تيمية -رحمه الله- في الرد على الرافضة الذين أنكروا خروج أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: "فهي -رضي الله عنها- لم تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها، كما لو خرجت للحج والعمرة، أو خرجت مع زوجها في سفره، فإن هذه الآية قد نزلت في حياة النبي ﷺ وقد سافر بهن رسول الله ﷺ بعد ذلك، كما سافر في حجة الوداع بعائشة -رضي الله عنها- وغيرها، وأرسلها مع عبد الرحمن أخيها فأردفها خلفه، وأعمرها من التنعيم، وحجة الوداع كانت قبل وفاة النبي ﷺ بأقل من ثلاثة أشهر، بعد نزول هذه الآية، ولهذا كان أزواج النبي ﷺ يحججن بعده كما كن يحججن معه، في خلافة عمر ﷺ وغيره، وكان عمر يوكل بقطارهن عثمان ﷺ، أو عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وإذا كان سفرهن لمصلحة جائزًا، فعائشة اعتقدت أن ذلك السفر مصلحة للمسلمين فتأولت في ذلك"[1]، فخرجت إلى البصرة لمحاولة الإصلاح وجمع كلمة المسلمين لمواجهة أعداء الدين.

ولما أتت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- على الحوأب يوم خروجها إلى البصرة سمعت نباح الكلاب، فقالت: «ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله ﷺ قال لنا: «أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب». فقال لها الزبير: أترجعين؟ عسى الله عز وجل أن يُصلح بك بين الناس[2]. وبهذا اللفظ أخرجه يعلى بن عبيد عن إسماعيل، وهو عند الحاكم، وقال الألباني[3]: إسناده صحيح جدًا وقال: صححه من كبار أئمة الحديث: ابن حبان، والذهبي،

---

(1) منهاج السنة النبوية، 4/ 317-318.

(2) مسند أحمد بن حنبل، 6/ 52 و6/ 97. قال شعيب الأرنؤوط: صحيح الإسناد. المستدرك للحاكم، 3/ 129.

(3) سلسلة الأحاديث الصحيحة 1/ 767.

وابن كثير، وابن حجر. فهذه الروايات الصحيحة، ليس فيها شيء من شهادة الزور أو التدليس الذي يتنزه عنه مقام الصحابة والذي زعمته الروايات الضعيفة والموضوعة.

قال الإمام الطحاوى-رحمه الله-: «فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين»[1]. وقال الإمام القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني-رحمه الله-:»وتم الصلح والتفرق على الرضا، فخاف قتلة عثمان من التمكن منهم، والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فرقتين، ويبدءوا بالحرب سحرة في المعسكرين ويختلطوا، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، ويصيح الفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب، فكان كل فريق منهم دافعًا لمكروه عن نفسه ومانعًا من الإشاطة بدمه، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى إذ وقع، والامتناع منهم على هذا السبيل، فهذا هو الصحيح المشهور[2].

زاد السبئيوّن في الجيشين من جهودهم في إنشاب القتال، ومهاجمة الفريق الآخر، وإغراء كل فريق بخصمه، وتهييجه على قتاله، ونشبت المعركة عنيفة قاسية حامية شرسة، وهي معركة الجمل، وسميت بذلك لأنَّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كانت في المعركة في الجولة الثانية وسط جيش البصرة، تركب الجمل الذي قدمه لها يعلى بن أمية في مكة، وخرجت على هذا الجمل من مكة إلى البصرة، ثم ركبته أثناء المعركة، وكانت المعركة يوم الجمعة في 16 من جمادى الآخرة، سنة 36ه، في منطقة «الزابوقة» قرب البصرة، حزن علي لما جرى، ونادى مناديه: كفوا عن القتال أيها الناس: ولم يسمع نداءه أحد، فالكل كان مشغولاً بقتال خصمه، كانت معركة الجمل على جولتين: الجولة الأولى كان قائدا جيش البصرة فيها طلحة والزبير، واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهيرة، ونادى علي في جيشه،كما نادى طلحة والزبير في جيشهما: لا تقتلوا مدبرًا، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجًا من المعركة تاركًا لها. وقد كان الزبير ﷺ، وصى ابنه عبد الله بقضاء دينه فقال: إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل مظلومًا، وإن أكبر همي ديَنْي. وقد دعا أمير

(1) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص482.
(2) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ص233.

المؤمنين عليٌّ الزبير، فكلمه فخرج الزبير من المعركة، فلقيه ابن جرموز فقتله. فالزبير ﷺ، كان على وعي لهدفه -وهو الإصلاح- ولكنه لما رأى حلول السلاح مكان الإصلاح رجع، ولم يقاتل. ولما علم علي بمقتله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية[1] بالنار» ويقول ﷺ: «لكل نبي حواري و إن حواري الزبير»[2].

وأما طلحة بن عبيد الله القائد الثاني لجيش البصرة، فقد أصيب في بداية المعركة، إذ جاءه سهم غريب لا يعرف من رماه، فأصابه إصابة مباشرة، ونزف دمه بغزارة فقالوا له: يا أبا محمد، إنك لجريح، فاذهب وادخل البيوت لتعالج فيها، فقال طلحة لغلامه: احملني، وابحث لي عن مكان مناسب، فأدخل البصرة، ووضع في دار فيها ليعالج، ولكن جرحه ما زال ينزف حتى توفى في البيت، ثم دفن في البصرة ﷺ.

وكان علي ﷺ يراقب سير المعركة ويرى القتلى والجرحى في الجانبين، فيتألم ويحزن، وأقبل علي على ابنه الحسن، وضمّه إلى صدره، وصار يبكى ويقول له: يا بُني، ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا. فقال الحسن: يا أبت، لقد كنت نهيتك عن هذا، فقال علي: ما كنت أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، وما طعمُ الحياة بعد هذا؟ وأيُّ خير يُرجى بعد هذا؟[3].

الجولة الثانية من المعركة: وصل الخبر إلى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بما حدث من القتال، فخرجت على جملها تحيط بها القبائل الأزدية، ومعها كعب الذي دفعت إليه مصحفًا يدع الناس إلى وقف الحرب، تقدمت أم المؤمنين وكلها أمل أن يسمع الناس كلامها لمكانتها في قلوب الناس؛ فتحجز بينهم وتطفئ هذه الفتنة التي بدأت تشتعل، وحمل كعب بن سور المصحف، وتقدم أمام جيش البصرة، ونادى جيش علي قائلاً: يا قوم، أنا كعب بن سور، قاضي البصرة، أدعوكم إلى كتاب الله، والعمل بما فيه، والصلح على أساسه. وخشي السبئيون في مقدمة جيش علي أن تنجح محاولة كعب فرشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد، فلقي وجه الله، ومات والمصحف في يده، وأصابت سهام السبئيين ونبالهم جمل أم

(1) صفية عمة رسول الله ﷺ.
(2) البداية والنهاية لابن كثير، 7/ 278.
(3) البداية والنهاية لابن كثير، 7/ 268.

المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وهودجها، فصارت تنادي، وتقول: يا بنى، الله، الله، اذكروا الله ويوم الحساب، وكفوا عن القتال. والسبئيون لا يستجيبون لها، وهم مستمرون في ضرب جيش البصرة، وكان علي ﷺ من الخلف يأمر بالكف عن القتال، وعدم الهجوم على البصريين، لكن السبئيين في مقدمة جيشه لا يستجيبون له، ويأبون إلا إقدامًا وهجومًا وقتالاً، ولما رأت عائشة -رضي الله عنها- عدم استجابتهم لدعوتها، ومقتل كعب بن سور أمامها، قالت: أيها الناس، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم. وصارت عائشة تدعو على قتلة عثمان وتلعنهم، وضج أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان وأشياعهم، ولعنهم، وسمع عليٌّ الدعاء عاليًا في جيش البصرة فقال: ما هذا؟ قالوا: عائشة تدعو على قتلة عثمان، والناس يدعون معها. قال علي: ادعوا معي على قتلة عثمان وأشياعهم والعنوهم. وضجّ جيش علي بلعن قتل عثمان والدعاء عليهم، وقال علي: اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر[1].

اشتدت الحرب واشتعلت وتشابك القوم وتشاجروا بالرماح، وبعد تقصف الرماح، استلوا السيوف فتضاربوا بها حتى تقصفت، ودنا الناس بعضهم من بعض، ووجّه السبئيون جهودهم لعقر الجمل وقتل عائشة أم المؤمنين، فسارع جيش البصرة لحماية عائشة وجملها، وقاتلوا أمام الجمل، وكان لا يأخذ أحد بخطام الجمل إلا قُتل، حيث كانت المعركة أمام الجمل في غاية الشدة والقوة والعنف والسخونة، حتى أصبح الهودج كأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل، وقتل حول الجمل كثير من المسلمين من الأزد وبني ضبة وأبناء قريش وفتيانهم بعد أن أظهروا شجاعة منقطعة النظير، وقد أصيبت عائشة بحيرة شديدة وحرج فهي لا تريد القتال ولكنه وقع رغمًا عنها، وأصبحت في وسط المعمعة، وصارت تنادي بالكف، فلا مجيب، وكان كل من أخذ بخطام الجمل قتل، فجاء محمد بن طلحة (السجاد) وأخذ بخطامة وقال لأمه أم المؤمنين: يا أماه ما تأمرين؟ فقالت: كن كخيري ابني آدم -أي كف يدك- فأغمد سيفه بعد أن سله فُقتل رحمه الله.

أدرك أمير المؤمنين علي ﷺ بما أوتي من حنكة وقوة ومهارة عسكرية فذة أن في بقاء الجمل استمرارًا للحرب، وهلاكًا للناس، وأن أصحاب الجمل لن ينهزموا أو يكفوا عن

(1) مصنف ابن أبي شيبة، 8/ 712. تاريخ الطبري 3/ 43.

الحرب ما بقيت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في الميدان، كما أن في بقائها خطرًا على حياتها، فأمر علي نفرًا من جنده منهم محمد بن أبى بكر «أخو أم المؤمنين» وعبد الله بن بديل أن يعرقبا الجمل ويخرجا عائشة من هودجها إلى الساحة، فعقروا الجمل، واحتمل أخوها محمد وعبد الله بن بديل الهودج حتى وضعاه أمام علي ﷺ، فأمر به علي ﷺ، فأدخل في منزل عبد الله بن بديل، وصدق حدس علي ﷺ العسكري، فما إن زال السبب أو الدافع الذي دفع البصريين إلى الإقبال على الموت بشغف، وأخرجت أم المؤمنين من الميدان، حتى ولوا الأدبار منهزمين.

كانت وقعة الجمل في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين يوم الخميس وكانت الوقعة يوم الجمعة[1].

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- الخروج من البصرة بعث إليها علي ﷺ بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي ﷺ فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار.

فقال علي ﷺ: صدقت والله كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مودعا ومشيعا أميالا، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم - كان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين- وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها.

(1) انظر: تاريخ الطبري 3/ 54. مصنف ابن أبي شيبة، 8/ 720. تاريخ خليفة خياط، ص138.

وقيل لأمير المؤمنين علي ﷺ: يا أمير المؤمنين، إن على الباب رجلين ينالان من أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فأمر عليٌّ القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما[1].

وبعد أحداث الجمل بايع أهل البصرة جميعًا عليًّا ﷺ، سواءً من كانوا معه، أم من كانوا عليه، وتمكن ﷺ من الأمور، وولّى على البصرة بعد أن تم له الأمر فيها -عبد الله بن عباس رضي الله عنهما-، ثم ترك البصرة، وتوجّه إلى الكوفة التي كان أغلب جيشه منها، ونزل في بيت متواضع، ورفض أن ينزل في قصرها الذي كان يُسمّى القصر الأبيض؛ لأن أمير المؤمنين الفاروق عمر ﷺ كان يكره هذا القصر لفخامته، ومكث ﷺ في الكوفة ليسيطر على الأمور، ودانت له البصرة والكوفة، وهي مناطق كبيرة، وبها من الجنود الكثير، ولا زال بعض من أهل الفتنة في جيش علي ﷺ إلى هذا الوقت، منهم من قُتل في معركة البصرة الأولى، وكثير منهم قُتل في معركة الجمل.

ب- معركة صفين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]، فهتان الآيتان أصل من الأصول التي تنظم علاقة المسلم بأخيه المسلم. فالله تعالى لم ينف صفة الإيمان عن إحدى الطائفتين أو كلتيهما مع وقوع القتال بينهما، وإن أولى الناس بالدخول تحت معنى هذه الآية هم سادات المؤمنين الصحابة الكرام ﷺ، سواء ما وقع في معركة الجمل أم صفين، وقد قام أمير المؤمنين عليّ ﷺ بتطبيق هذه الآية من حرصه على الإصلاح. وقد استجاب طلحة والزبير لذلك، إلا أن أتباع عبد الله بن سبأ أنشبوا الحرب بين الطرفين، وحرص أمير المؤمنين ﷺ على الإصلاح مع أهل الشام، وبذل ما في وسعه، من طرق سلمية، وجرّد سيفه بعد فشل كل المحاولات الإصلاحية لكي يفيء معاوية إلى السمع والطاعة، ووحدة الخلافة الإسلامية، إلا أن معاوية اشترط تسليم قتلة عثمان ﷺ، فاجتهد وأخطأ، وكان الحق مع أمير المؤمنين علي ووقع القتال.

(1) البداية والنهاية لابن كثير، 7/ 274.

وبعد انتهاء أحداث الجمل صمم أمير المؤمنين علي على أن يحمل معاوية –والي الشام– وأهل الشام على البيعة، وكان معاوية يرفض مبايعة عليّ حتى يسلمه قتلة عثمان للاقتصاص منهم لأنه وليه وابن عمّه، وكان علي يرفض هذا الشرط، ويشترط عليه المبايعة أولاً.

وسار أمير المؤمنين علي في السنة السابعة والثلاثين للهجرة إلى صفين (بين العراق والشام) يريد قتال معاوية، ولم يكن معاوية يعتبر نفسه خليفة ولا يرى نفسه أفضل من علي، إنما وضع شرطاً لمبايعة عليّ وهو أن يتم تسليمه قتلة عثمان، حيث كان بعضهم في جيش علي، كما أن معاوية رفض قرار عزله.

وبرز السبئية من جديد وأخذوا يحثون الخليفة علي ﷺ والناس على قتال أهل الشام، فخرج ﷺ لقتال معاوية، وقتل من المسلمين عدد كثير، إلا أنه دون ما ذكرته بعض الكتب التاريخية التي بالغت حتى أن أحدها ذكر أن قتلى الشام بلغوا تسعين ألفاً في الوقت الذي لم يتجاوز الجيش خمسة وثمانين ألفاً!

لم يكن أمير المؤمنين علي ﷺ يجهل خطورة أهل الريب والفتنة من السبئيين المارقين على الأمة، ولا يقلل من شأنهم، لكنه كان يرى التمهل في هذا الأمر حتى تستقر أمور الدولة وتقوى شوكتها وتضعف قوة المتمردين ويتفرقوا في قبائلهم، فآنئذ يؤخذون ويقتلون تقتيلا، ولقد رأى الإمام قوة بأسهم وكثرة مادتهم ومن أيدهم من جفاة الأعراب، والرعاع من الناس الذين يسمعون لكل ناعق، فيصدقون كل إرجاف، وينساقون وراء المكر والخداع. أضف إليه سيطرة أولئك القتلة على المدينة، فأدرك خطأ الصدام معهم وهم على هذه الحالة.

ولم يكن هناك اختلاف بين أمير المؤمنين علي ﷺ وبين الفريق الآخر من الصحابة في تطبيق الشريعة وإقامة الحدود، وإنما كان الاختلاف في توقيت ذلك، فالآخرون يرون الإسراع في القصاص، وهو يرى الإرجاء، حيث نظر إلى الأمر نظرة مصلحة ومفسدة ، فرأى أن المصلحة تقتضي تأخير القصاص لا تركه، فأخر القصاص من أجل هذا.

وكان أغلبية الصحابة ﷺ يحذرون من الفتنة، وقد اعتزل أكثرهم القتال، ومع اشتداد القتال تنادى المسلمون إلى الصلح ووقف القتال، ورفعت المصاحف على

الرماح، لتبدأ مرحلة جديدة بعيداً عن القتال وتم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين؛ وهو أن يُحكِّم كل واحد منهما رجلاً من جهته ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص ووكل عليّ أبا موسى الأشعري، وكُتبت بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة 37هـ، وقد رأى قسم من جيش علي ﷺ أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر، فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل علي ﷺ إليهم ابن عباس -رضي الله عنهما-، فناظرهم وجادلهم ثم ناظرهم علي ﷺ بنفسه فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي ﷺ حروب في النهروان -وبعدها- قضت عليهم إلا قليلا منهم، وكان لهذه المعارك أثرها على جيش الإمام علي ﷺ؛ حيث أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة، وعن الخوارج أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»[1].

أما ما ورد في بعض الروايات الباطلة بأن الحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص) اتفقا على عزل علي ومعاوية، فغير صحيح ولم يثبت برواية صحيحة أو معتبرة؛ ذلك أن معاوية لم يكن خليفة، ولم يطلب البيعة على الخلافة في تلك الحروب التي خاض غمارها، وإنما خرج للمطالبة بدم ابن عمه عثمان بن عفان رحمه الله.

ولقد أخبر رسول الله ﷺ عن موقعة صفين فيما رواه أبو هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ»[2]. قال الإمام ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- في شرحه للحديث:«المراد بالفئتين علي ومن معه، ومعاوية ومن معه، ويؤخذ من تسميتهم مسلمين ومن قوله (دعوتهما واحدة)، الرد على الخوارج ومن تبعهم في تكفيرهم كلا من الطائفتين، ودل

(1) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ح1064.

(2) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار، ح 6704. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، ح157.

حديث: (تقتل عمارا الفئة الباغية) على أن عليا كان المصيب في تلك الحرب؛ لأن أصحاب معاوية قتلوه»[1].

وخلاصة القول: إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام ﷺ هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم ﷺ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويرضى عنهم ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد، والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوِّز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم[2].

ج- إلى النعيم المقيم:

كان من أسوأ تداعيات حرب صفين المشئومة سنة 37هـ ظهور فرقة الخوارج التي استباحت دماء المسلمين وكفروهم وكفروا عثمان وعليًا ومعاوية وسائر الصحابة والتابعين، وقطعوا السبيل وسفكوا دماء الأبرياء، فتصدى لهذه الفرقة الضالة أمير المؤمنين علي ﷺ وشتت شملهم في معركة النهروان سنة 38هـ، مما زاد من نقمة الخوارج على المسلمين عامة وأمير المؤمنين علي خاصة، فدبروا مكيدة لاغتياله، فدخل ابن ملجم الخارجي الكوفة وأخذ يدبر قتل أمير المؤمنين علي ﷺ.

في هذه الفترة كان أمير المؤمنين علي ﷺ في رمضان يفطر يومًا عند الحسن والثاني عند الحسين والثالث عند ابن أخيه عبد الله بن جعفر، وكان لا يزيد في إفطاره عن ثلاث لقم، وكان قد كره أهل العراق من شيعته لخذلانهم له وعصيانهم لأوامره وظهور الخوارج بأرضهم، وقد تنغصت عليه أموره واضطرب عليه جيشه ونكلوا عن القيام معه، وفي المقابل كان أمر معاوية يستفحل في الشام، هذا على الرغم من أن عليًّا خير أهل الأرض وقتها، أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع ذلك خذله أهل العراق

(1) فتح الباري، 13/ 85.

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام ﷺ، ناصر على عائض حسن، 727/ 2.

وتخلوا عنه، حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، حتى جاءت اللحظة التي سبق وأخبره بها رسول الله ﷺ عندما قال له: «أشقى الناس رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه ـ يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعني لحيته»[1].

فكان ابن ملجم أشقى الناس ومعه رجلان واسمهما وردان وشبيب، وفي فجر يوم الجمعة 17 رمضان سنة 40هـ شد شبيب وابن ملجم على أمير المؤمنين علي ﷺ أثناء خروجه لصلاة الفجر فطاش سيف شبيب، وأصاب سيف ابن ملجم رأس علي بن أبي طالب ﷺ فسال دمه الطاهر الشريف من قرنه حتى ابتلت لحيته كما أخبر من قبل رسول الله ﷺ.

وحمل علي ﷺ إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف فقال له: "أي عدو الله ألم أحسن إليك ؟ قال: بلى: قال.

فما حملك على هذا: قال ؟ شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه.

فقال له علي: لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلق الله. ثم قال: إن مت فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به"[2].

وكانت هذه وصيته لما حضرته الوفاة: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت أنا من المسلمين، ثم أوصيكما يا حسن ويا حسين وجميع أهلي وولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: (إن صلاح ذات البين أعظم من عامة الصلاة والصيام)، وانظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم

(1) مسند أحمد بن حنبل، 4/ 263. قال شعيب الأرنؤوط: حسن.
(2) البداية والنهاية، 7/ 362.

يهون الله عليكم الحساب، والله الله في الأيتام لا يضيعن بحضرتكم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب الرب عز وجل، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله في القرآن فلا يسبقنكم بالعمل به غيركم، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، والله الله في بيت ربكم عز وجل لا يخلون ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا، والله الله في أهل ذمة نبيكم ﷺ فلا يظلمن بين ظهرانيكم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ﷺ قال: (مازال جبريل يوصيني بهم حتى ظننت أنه سيورثهم)، والله الله في أصحاب نبيكم ﷺ فإنه وصى بهم، والله الله في الضعيفين: نسائكم وما ملكت أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به ﷺ أن قال: (أوصيكم بالضعيفين النساء وما ملكت أيمانكم)، الصلاة الصلاة لا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي أمركم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، عليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم ﷺ، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام»[1].

كانت هذه وصيته ﷺ جامعة للأخلاق الإسلامية، والخصال المحمدية، والآداب القرآنية، ولخير الدنيا والآخرة.

وظل علي بن أبي طالب ﷺ بعد إصابته مدة يومين الجمعة والسبت، وفي ليلة الأحد التاسع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة، توفي ﷺ، متأثرا بالجرح البالغ الذي سببه له سيف ابن ملجم المسموم، وبذلك لقي الله شهيدا وهو في الثالثة والستين من عمره، وغسله ولداه الحسن والحسين -رضي الله عنهما-، وصلى عليه الحسن، ودفن بدار الخلافة بالكوفة، خوفا من الخوارج أن ينبشوا عن جثته.

وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر إلا أياما.

ولما قُبض أخرج ابن ملجم الخارجي من سجنه فضربت عنقه.

(1) المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان الطبراني: 1/ 97.

فالقتلة هم القتلة، فالأيادي التي تجرأت على اغتيال الخلفاء الراشدين ﷺ قبله هي نفسها وبامتداداتها الماكرة الحاقدة التي قتلت أمير المؤمنين عليا ﷺ؛ حرصا على استمرار وقود الفتنة ودوامها، وهي الأيدي ذاتها التي لا زالت جريئة على دماء المسلمين، وحريصة بكل الوسائل الباطنة والظاهرة على إيذائهم.

"لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثرا.. لكن حظوظه مع نفسه في طهرها وتقاها كانت رابية ووافية.. فبغير عون من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقاء..

وبغير جزع أمام المؤامرات الضاربة، يثيرها في وجهه أعداء، تلو أعداء.. وقف الإمام علي يبني وحده بإيمانه الفرد، وبساعده الأشد، حياة سامقة تبقى على مر الزمان منارا لذوي الرشد والنهى..

ولئن لم ينصفه الذي غلوا في حربه.. ولم ينصفه الذين غلوا في حبه..

فقد أنصفته عظمته الفريدة، إذ فرضت على الأعداء جلالها، وعلى الأصدقاء استغناءها، وسارت على وجه الزمان طاهرة، ناضرة، ظافرة.. وتلكم هي العظمة حقًا.."[1].

دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له: «صف لي عليًّا. فقال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذ لا بد، فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته ،كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول: للدنيا إلي تغررت

(1) خلفاء الرسول ﷺ، خالد محمد خالد، ص314.

إلي تشوفت هيهات، هيهات، غري غيري، قد أبنتك ثلاثا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء فقال: كذا كان أبو الحسن رحمه الله.كيف وُجْدُك عليه يا ضرار؟ قال: وُجْد من ذبح واحدها في حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها! ثم قام فخرج[1].

4- الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين:

لما ضرب أمير المؤمنين علي ﷺ قال له جندب بن عبد الله: "يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر"[2].

ولما استشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بايع أهل الكوفة الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة، قال له: ابسط يدك، أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فسكت الحسن فبايعه ثم بايعه الناس بعده، وكان قيس على إمرة أذربيجان وتحته أربعون ألف مقاتل بايعوا عليا على الموت، فلما استشهد علي ألح قيس على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، ولم يكن في نية الحسن ﷺ أن يقاتل أحدا، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعا عظيما لم يسمع بمثله، فلما وصل المدائن ونزلها ثار الناس فانتهبوا أمتعته وطعنوه طعنة قاسية، فكرههم الحسن ﷺ، ونزل قصر المدائن وهو جريح، وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفي، فلما استقر الجيش بالقصر، قال المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي يصوره روافض اليوم في أفلامهم السينمائية أنه البطل الشجاع الذي ذاد عن أهل البيت في حين كان أول الخائنين لهم المتخاذلين عنهم، قال المختار الشيطان[3] لعمه سعد بن مسعود: «هل لك الشرف والغنى؟ قال: ماذا؟ قال: تأخذ الحسن بن علي، فتقيده وتبعثه إلى معاوية، فقال له: قبحك الله وقبح ما جئت به، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ؟!»[4].

---

(1) حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، أبو نعيم أحمد الأصبهاني، 1/ 74-75.
(2) البداية والنهاية، 7/ 362. تاريخ الطبري، 3/ 157.
(3) وقد ادعى هذا الشيطان النبوة فيما بعد وقتله مصعب بن الزبير.
(4) البداية والنهاية، 8/ 16.

ولما رأى الحسن تفرق جيشه عليه، مقتهم وكتب عند ذلك إلى معاوية يبذل له الصلح ويشترط عليه شروطا، فأرسل له بصك مختوم فيه كتابة، وطلب إليه أن يشترط لنفسه ما يشاء.

فكتب الحسن شروطا: أهمها: تأمين جيشه وشيعة علي كلهم، فقبلها معاوية، كما تضمن الكتاب أن يكون الأمر للحسن بعد معاوية. فكان بعض شيعة الحسن المتخاذلين يقولون للحسن: يا عار المؤمنين، فيقول لهم: العار خير من النار[1].

وقدم معاوية إلى العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه هو وجنده، وكان ذلك في عام إحدى وأربعين للهجرة، وسمي بذلك العام بعام الجماعة.

ولحق الحسن بالمدينة وأهل بيته وحشمهم ﷺ، وجعل الناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة.

قيل للحسن: "ما حملك على ما فعلت؟ فقال: كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحدٌ أبداً إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر، لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً، فليت شعري لمن يصلحون بعدي، وهي أسرع البلاد خراباً!"[2].

فتنازل عن الخلافة -طائعا مختارا- لا لذلة ولا لقلة ولا لعلة، بل رغبة فيما عند الله تعالى، لما رآه من حقن دماء المسلمين، في الوقت الذي كان يدرك فيه تهافت أتباعه واحتمال تخلفهم عن نصرته إذا جد الجد، وقد خلوا أباه من قبله، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة وسلم زمام الخلافة لمعاوية، فتحقق إخبار رسول الله ﷺ: فعن أبي بكرة قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[3].

(1) البداية والنهاية، 8/ 45. فتح الباري، 13/ 65.
(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير، 3/ 204.
(3) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما، ح2557.

ولقد ضرب الحسن سبط رسول الله ﷺ وريحانته بتنازله عن الخلافة مثلا ساميا، حيث أن سدة الحكم ليس كل شيء في حياة العظماء من الرجال ذوي الأهداف السامية، وأن كرسي الحكم لا يستحق من أرباب النفوس العالية أن يتزاحموا عليه إلا بالقدر الذي يمكنهم من الإصلاح، ويعينهم على تحقيق الخير لأمتهم ورعيتهم.

والجدير بالذكر هنا أن بيعة الحسن ﷺ كانت بالاختيار ولم تكن بالوصية وبنص من والده أمير المؤمنين علي ﷺ كما يروج الشيعة الروافض! وهذا الأمر يعد من المفتريات على أمير المؤمنين علي ﷺ حيث لم يصح النقل عنه بذلك، إن الشيعة الرافضة يعتقدون أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وأنها مثلها لطف من الله تعالى، وليس للبشر حق اختيار الإمام وتعيينه، بل وليس للإمام نفسه حق تعيين من يأتي بعده، وقد وضعوا على لسان أئمتهم عشرات الروايات الباطلة الموضوعة المدسوسة في ذلك.

وأساس عقيدة الوصية هو ابن سبأ وكان ينتهي بأمر الوصية عند علي ﷺ ولكن جاء فيما بعد من عممها في مجموعة من أبنائه، وكانت الخلايا الشيعية الرافضية تعمل بصمت وسرية، كما اخترعوا "عقيدة التقية" حتى يسهل نشر أفكارهم وهم في مأمن من تأثر الأتباع بمواقف أهل البيت الصادقة والمعلنة للناس.

استمر أمير المؤمنين الحسن بن علي -رضي الله عنهما- بعد مبايعته خليفة للمسلمين على الحجاز واليمن والعراق وغير ذلك ستة أشهر، وكانت خلافته هذه المدة خلافة راشدة حقة لأن تلك المدة كانت تتمة لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر رسول الله ﷺ أن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى سفينة مولى رسول الله ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»[1]، وقد كملت الثلاثون سنة بخلافة الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، حيث توفي رسول الله ﷺ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وتولى أبو بكر الصديق ﷺ الخلافة في ربيع الأول عام 11هـ، وتنازل الحسن لمعاوية ﷺ في ربيع الأول عام 41هـ، وبهذا تمام الثلاثين، وهذا من دلائل

(1) سنن الترمذي، كتاب الفتن، ح2226. قال الألباني: صحيح.

النبوة صلوات الله وسلامه عليه. وبذلك يكون الحسن بن علي -رضي الله عنهما- خامس الخلفاء الراشدين.

ولم يكن في الثلاثين بعد رسول الله ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن وقد قرر جمع من أهل العلم عند شرحهم للحديث السابق. أن الأشهر التي تولى فيها الحسن بن علي -رضي الله عنهما- بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها.

مسك الختام

إن المخذولين من السبئية وورثة المجوس اتخذوا من الطعن في صحة الوسائل التي عمل بها الصحابة الكرام ﷺ في تداول السلطة مفتاحا لتحريك الفتن وزرع الأحقاد وإيقاد الضغائن ونشر الكراهية وبث الشبهات، فهاهم تلامذتهم الجدد من الغوغاء يرددون شبهاتهم ذاتها في هذا العصر، ولا يفكرون فيما يرددون عندما يغمضون أبصارهم عن إنجازات الخلفاء الراشدين ﷺ ومكانتهم في الإسلام، ويصمون أسماعهم ثم يقذفونها إفكا مبينا بأن الخلفاء الراشدين الثلاثة أبخسوا عليا حقه صابّين جام غضبهم عليهم، ظلما وعدوانا.

إن الخلفاء الراشدين انتخبوا دون أن يسعى أحد منهم للوصول للسلطة، أو استخدامها من أجل مدها إلى أقاربهم، بل كانت رغبتهم في تفادي تحملها بينة واضحة.

فلماذا يتغافل هؤلاء عن الروايات الصحيحة التي تتحدث عن علاقة المحبة والأخوة الصادقة بين الخلفاء الراشدين ويطمس ذكرها، ولا تذكر إلا الروايات الموضوعة المدسوسة التي تسيء ولا تحسن، وتخالف ولا توافق ما عرف عن الخلفاء الراشدين الأربعة ﷺ من تشاور وتعاون وتفاهم وتآزر وتوافق في كل شيء، ومحبة لا نظير لها، ولم يعرف التاريخ مثلها، ووحدة الأمة وإنجازات عمرانية واقتصادية وسياسية وفتوحات في وقت أسرع من البرق.

إن تاريخ الخلفاء الراشدين ﷺ يظل مذكراً للأمة عبر الأجيال، ويكون الانتفاع به بالتأسيِّ بأولئك العظماء وتطبيق مواقفهم الخالدة الكريمة حتى لا يظن ظان أن هذه المواقف والدروس والعبر إنما كانت في عصور ملائمة لوجودها وأن تكرارها يتطلب ظروفاً حياتية مشابهة، والحقيقة تقول إنه كلما قويَ المحرك الإيماني واتضح فقه القدوم على الله وحرص المسلمون على العمل به، فإن الله يتكفل بنصر أوليائه وتسخير ظروف الحياة لصالحهم.

اللهم ارض عن سادتنا أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وذي النورين عثمان وعلي المرتضى وسبطي المصطفى الحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء وعن الصحابة أجمعين وعن أزواج نبيك أمهات المؤمنين وعن التابعين وتابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وصل اللهم أفضل صلواتك على أشرف مخلوقاتك سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	3
مقدمة	5
المدخل العام: ماهية الخلافة	9
أولا: تعريف الخلافة لغة واصطلاحا	9
ثانيا: دعائم الخلافة	11
ثالثا: الشروط المعتبرة في أهل الخلافة	13
رابعا: ما يلزم الخليفة من الأمور	17
المحور الأول: أثر وفاة رسول الله ﷺ على أصحابه ﷺ	19
المحور الثاني: خلافة أبي بكر الصديق ﷺ	25
أولا: نبذة موجزة عن حياة	25
ثانيا: أبو بكر الصديق ﷺ أول الخلفاء الراشدين	38
المحور الثالث: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ	61
أولا: نبذة موجزة من سيرته	61
ثانيا: الفاروق عمر ﷺ ثاني الخلفاء الراشدين	69
المحور الرابع: ذو النورين وزوج الابنتين وصاحب الهجرتين عثمان بن عفان ﷺ	120
أولا: نبذة من حياته:	120
ثانيا: الأمين عثمان بن عفان ﷺ ثالث الخلفاء الراشدين	125
المحور الخامس: الإمام علي بن أبي طالب ﷺ	147
أولا: ترجمة موجزة لسيرته:	147
ثانيا: علي بن أبي طالب ﷺ رابع الخلفاء الراشدين	152
مسك الختام	173

إصدارات حديثة للمؤلف

الأستاذ الدكتور/ أبو اليسر رشيد كهوس

الأستاذ بكلية أصول الدين بتطوان ـ جامعة القرويين

- نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية:

  سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ.
- سنة الله في اليهود ومستقبل الأمة الموعود.
- إتحاف العباد بحقيقة الجهاد.
- العبر من سيرة خير البشر ﷺ.
- مختصر تواريخ الأحداث المشهورة في السيرة النبوية.
- التنشئة الإسلامية للطفل.
- مستقبل الأمة المسلمة.
- في ظلال السيرة النبوية.